❖ الكتاب: شجرة الزمزريق

❖ المؤلف: نوار الحموي

❖ نوع العمل: رواية

❖ الغلاف: نوار الحموي

الفهرس

المقدمة

رواية شجرة الزمزريق: مغامرات شاب مع بائع مسحور.

فانتازيا في مدينة حقيقية، وجميع التسميات من الشوارع والأماكن والوقائع التاريخية وتواريخها والأحداث في المدينة صحيحة، ما عدا أسماء الشخصيات الرئيسية في القصة قد تم تغييرها، لكي لا نحصر الأمر في شخصيات الواقع.

السحر في هذه الرواية القصيرة والخيال وترتيب الاحداث يأخذك إلى عالم منفرد بذاته، فهناك متعة ومغامرة وفائدة وتحليل نفسي عميق، ونتائجه وتغيراته متواجدة من أول فصل إلى آخر فصل مترابطة وكل كلمة متصلة بالأخرى.

مغامرة هاني وكيف ينقذ يحيى من السحر ويكسران السحر المقيد للمدينة، وأحداث ممتعة مع القط المتكلم والأشجار الحكيمة، واستكشاف معالم اثرية مخفية عن أعين أهل المدينة الحاليين، والطرابيش التي أصابتهم اللعنة من جراء خطاياهم، أحداث شيقة ورواية قصيرة تكاد تقترب من فيلم سينمائي تراه في مخيلتك.

نوار الحموي

معدل أول مرة في 21.02.2023 ألمانيا

ملاحظات

في النسخة الأولى ببعض الكتابات استخدمت نوعية خط وغيرت حجمه، أكبر أو أصغر من الحجم المعتاد للنص الكامل، وهو كنوعية الصوت في الكلام أو حتى طريقة التفكير بأشياء المهمة أو مهملة، أو حتى أُريد القارئ ألا أشغل تفكيره بالأشياء السلبية فأقوم بإبعادها عن نظره بالخط الصغير، كنوع حماية لوعيه لهذه الكلمات، الأشكال الصغيرة تهمل الكلمة باللاوعي وتصبح أقلّ حساسية ومعنى لدى الدماغ اللاواعي، و لكن هذه النسخة الحالية بين يديك لا تتضمن هذه التعديلات.

هنالك قصص تسردها الشخصيات مثل قصة يسردها هاني (ساحة الأبكم) وغيرها من قصص تسردها الشخصيات هي من تأليفي أيضاً وليست مأخوذة من الماضي كما تدعي الشخصيات، في النسخ الإلكترونية من الكتاب لا يحتوي المخططات للمدينة لذلك هي موجودة في النسخ الورقية و أيضاً على صفحاتي الإلكترونية الأخرى.

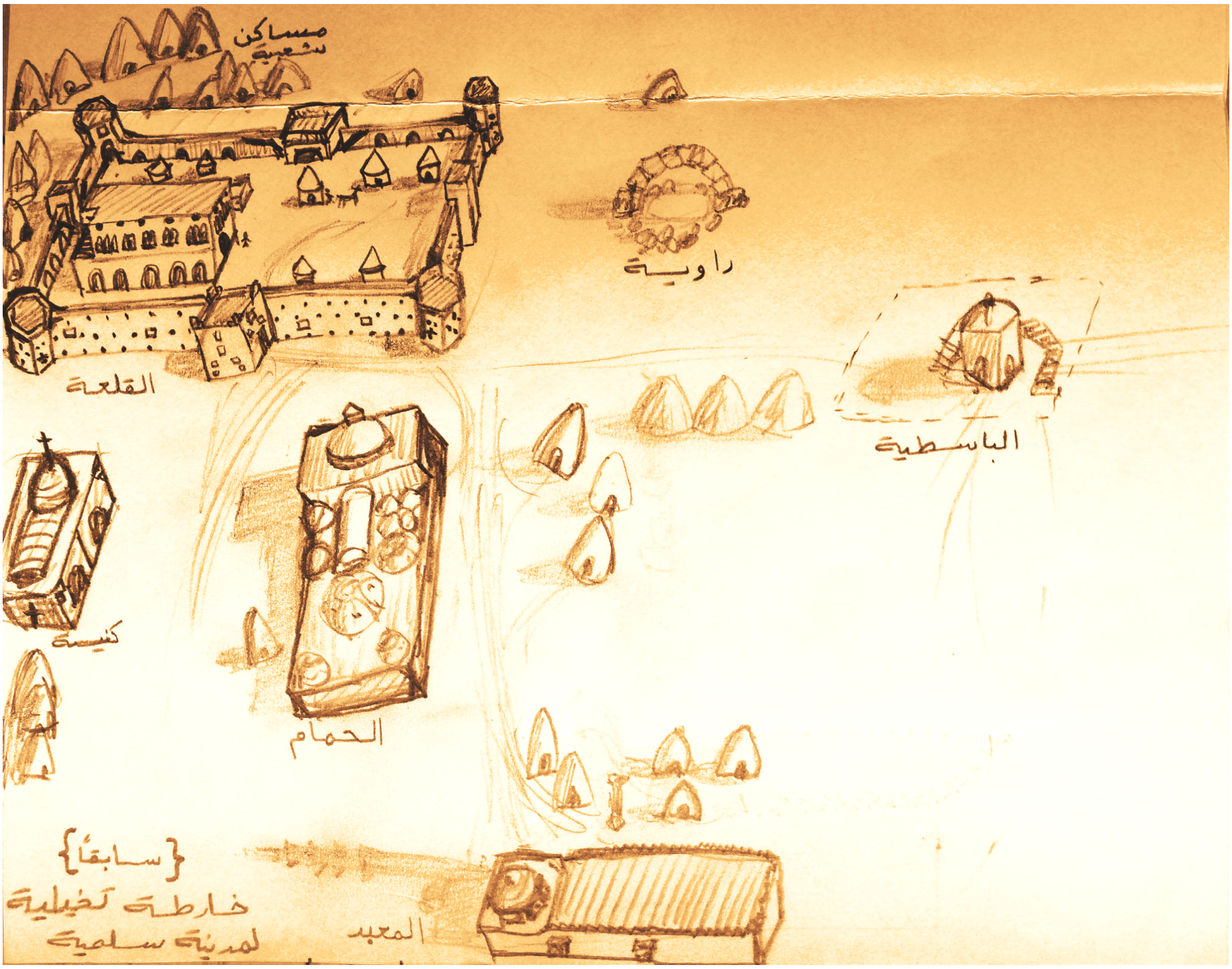
إن معظم الأحداث في القصص تدور في مدينتي "سلمية" المتواجدة في المنطقة الوسطى في سوريا. وأخيرًا أصفها بهذه الكلمات: هذه المدينة التي غرست سلسلتها الذهبية المجنزرة في رمال الصحراء، وبقيت كجوهرة مرمية على حدود البادية، لا ينتزعها أحد، كتميمة للسلام، أطفالها كثيرون، فلهم أجنحة ولا يستطيعون فردها في بيوتهم.

نوار الحموي

ألمانيا 02.01.2021

رواية

شجرة الزمزريق



خارطة تخيلية لمدينة سلمية القديمة

الفصل الأول

أنا أعلم أني مصاب بالذهان

في صباحٍ صيفي حارٍ وعلى أصواتِ العصافيرِ الصارخةِ من أشجارها العطشى، يستيقظُ "يحي" ويُحاولُ جاهداً النهوضَ، فيسحبُ رجليهِ المعوجتين من السريرِ، وبتريثٍ وحذرٍ شديدين يرخيهما على الأرضِ، وتكادُ الشتيمة تخرجُ من شفتيهِ عند مُلامَستِهُما تِلكَ السُجادةِ المُهترئة الخشنة التي تنفذ منها رائحة الرطوبة كحال باقي المنزل، وهو منكساً رأسه للأمام ينظرُ إليهما، ويرغبُ أن يسألهما ممتعضاً: هل فعلاً أنتما مقتنعتان بالذي فعلته الآن، وبما سأفعله؟ كأنّما حُكِمَ عليه بالشقاء الأبدي، يخطو خطواتهِ الأولى مترنحاً بكتفيه المائلتين لليسار، في غرفتهِ التي لم تَكُن تحتوي على أدنى متطلباتِ العيشِ، كما هو حال كامل منزلِهِ، والجدران الرمادية القاتمة تُعطي إيحاءً كئيباً، كحركة لونية داكنة صنعتها ريشة رسامٍ انطباعي رأى المشهدَ كاملاً، أمّا الستائر البالية والسجادة وخزانته الخشبية لم يعد يلاحظ وجودهم، أصبحوا كلوحاتٍ ثنائية الأبعاد قد اختزلهم عقلهُ، الذي تكيفَ مع هذا البؤس كأنما يساعده ليختصر يومه ومشاقه بأسرعِ وقتٍ، دون أن يسرف بالتفكير. كانت بعض الولاعات[1] الملونة المتراكمة في علبٍ صغيرة في أحد الزوايا، هي الأشياء الوحيدة التي تتبدل فقط، وذلك من حينٍ إلى آخر. تناولَ كَسرة خبز يابسة متبقية من ليلةِ البارحةِ على طاولة غرفته، وارتدى بعد ذلك حِذاءهُ المُهترئ وحَمَلَ في يدهِ اليُمنى علبتي الولاعات. تلقي

[1] - الولاعات: القداحات



والدة يحيى كلماتها على مسمعه لتشحذ همتهُ باكراً لكسبِ الرِزقِ، والدتهُ "سَحَر" التي لا يبدو عليها التقدم في السن بعينيها العسليتين وشعرها الأشقر المتموج الذي يصل لأسفل كتفيها بقليل، ورغم طولها الذي يبدو مميزاً بالنسبة لبقية النسوة في المدينة تُبقي ظهرها مستقيماً، وكانت مفعمة بالنشاط كفتاة في العشرين من عمرها.

أثناء عبور يحيى حديقة المنزل القاحلة تغير وجهه وجسده ليصبحا أكثر ضعفا وكآبة كبائعٍ متجول بائس وخرج من باب سور المنزل. وهو يسير وصوتُ احتكاكِ حذائهِ بالطريقِ يبدو متقطعاً كإيقاعٍ بطيءٍ يتخللهُ نِداؤهُ المُتعَب الثقيل كلحن حزين، ولِسانَهُ ينطق باعوجاجٍ متقطع مِثلَ سَيرِهِ: قَداحات، قَداحات. فيختنق صوته عند حرف الحاء، ويُحرر ما تبقى من الكلمة المنحبس للحظة في حنجرته كآهاتٍ مثقلة بالمعاناة. كانت يَدُهُ اليُسرى تلوحُ كغصنِ شجرةٍ مَكسورٍ في مهبِ الريح، ونصف جسده الأيسر كأنّما امتصت منه الحياة، فيبدو ذابلاً مترنحاً ضعيفاً، وشعرهُ الأسودُ القصيرُ الناعم يتموج بنعومته أمام وجهه المُسمَرِ من حرقة الشمس، وما يعطيه ثيمات التعاسة؛ التواءه فمه ولحيتهُ المهملةُ المتناثرةُ على خديه المضمرين؛ تبدو عيناه الصغيرتان البنيتان كمستقبلِهِ المُبهمة معالمهُ، وكان دائماً يرتدي نفس المعطف في الصيف والشتاء بلونهِ الأزرق الداكن، كعرب الصحراء[2] لكيلا يغدر البرد جسده النحيل، الذي تكسوه تلك الملابس الفضفاضة والبنطال ذو القماش الأسود وحذائه الرياضي الأبيض المتآكل، ليبدو يحيى للوهلة الأولى كفزاعة حقل تمشي مترنحة ببؤس شديد.

[2] - عرب الصحراء: الذين يتقون حر النهار والليل بملابسهم، ويبقون شيء لبرد الليل الغادر.



أثناء تجواله في سلمية[3] يصادف بعض الفتية الصغار الذاهبين لمدارسهم، وينادونه وقهقهاتهم تتعالى بألقاب اخترعوها، وكأنما يشاهدون أحد الشخصيات الهزلية في مسلسلاتهم الكرتونية، كان يتحمل كل ذلك كما كان يحتمل كلمات الشفقة من بعض المارة، التي كانت تخرج من أفواههم دون تردد، ففي كلتا الحالتين كان يشعر بالاستياء ويكظمهُ. قطع الوقت ماشياً والشمس قاربت منتصف السماء، وبقي إصراره على العمل هو ذاته، رغم ندرة المارة في الشوارع في هذا الوقت من النهار، ويصل يحيي إلى حي جميل يبدو أكثر اتساعاً ونظافة، وعلى كلتا جانبي الشوارع زُرِعَت أشجار الزيتون، ناهيك عن منظرها الجميل، ومازال يسير وينادي بكل ما لديه من طاقة: قداحات، قداحات. والانقطاع عند حرف الحاء مع عطشه المتزايد وفي كل تكرار لها يصبح أطول من سابقه.

*

يجلس هاني في غرفته المشمسةِ، أمام طاولته الدراسيةِ التي ضجرت يداه من ملامسة سطحها الخشبي الناعم، حتى أنّه بدأ ينتابه شعور بالسقم في كل مرة يراها فيها. وكان الملل من الدراسة يسحبه إلى عوالم خيالية لم يصل إليها قط. ولديه تساؤلات وأحلام تتشعب بين تلافيف عقله ما كان يعرف إلى حلها سبيلاً، وكأنها أشجار العليق قد انتشرت بين ثناياه. أنا أعلم أني مصاب بالذهان قال هاني محدثاً نفسه، وهو يعرف حق المعرفة بأن هذا هو الطريق الذي سوف توصله يومًا ما إلى الاكتئاب،

[3] - سلمية: مدينة سورية تقع في المنطقة الوسطى و تتبع ادارياً لمدينة حماه.



لقد أصبحت تلك الأسئلة والتخيلات كنحل يطن داخل مسامعه، وهي تحاور فيما بينها وكل نحلة تبلغ الأخريات عن مكان حقلٍ أفكارٍ جديد، وما إن يذهب تفكيره معهن حتى تأتي أخريات لتبلغن عن حقلٍ آخر، نخلية تقبع في جوف جمجمته، وأحيانا تفكيره يبدأ باجترار ما جمعه من أفكار وخلطها مع ذكريات سابقة وعندها فقط يصاب بغضب هستيري، وتكرار هذا الأمر يجعله لا إرادياً يفرغُ غضبه، فيصاب بالتشنج و يكز على أسنانه كحيوان بري طبقت مصيدة حديدية على إحدى قوائمهِ فلا يستطيع الحراك ولا الإفلات منها، فيضربُ قبضته اليمنى على الطاولة، صارخاً بصوتٍ مُلتهبٍ وأسنانه مطبقة، قائلاً: خلص!(...)[4] -وبعدها لا يفكر بشيء.

فتقطع الهواء كشفرة حادة لتسكت كل ما في داخله من أصوات، فينجلي عن عينيه غشاوة التفكير المظلم، وتتفتح على الواقع الهادئ، كفراشة عرفت طريقها إلى النور و يستمتع بذلك الصمت، كصمت جناحي الفراشة المفرودتين في الهواء حينما تطير، وينساب احساسه في الوقت كانسياب جدول ماء في غابة على احجار ملساء عمرها آلاف السنين.

يترددُ نِداء يحيى، فانتصب رأس هاني للأعلى وعيناه تتسعان ويتسمر لثواني، ويعود لطبيعته فترتخي عضلاتُ وجهه وكأنما يرى نفسه في صورةٍ جانبيةٍ، ويقول بداخله

4 بين القوسين: أعنى به كالزمن وهو يدل على الوقت الذي ساد به الصمت، ويعني أيضاً أنه لا يوجد شيء للتفكير به، أو بمعنى آخر شيء ليصف السكوت في تلك اللحظة وكم كانت مدته باستخدام سرعة القراءة.

"كم أنا أبله" فيعود المنطق ليُثقِلَ جمجمته، يريد أن يلبي ذلك الواجب الحسي[5]، الذي يشعره بتلك الطمأنينة كلما فعل ذلك، ويشعره بتلك الحالة من التواصل مع البشر الأحياء، لا الذين يُصنَعون من ذبذبات أفكاره المشوشة. ينهض مسرعا يبحث عن خمس وعشرين ليرة سورية، وهوَ معطياً سمعه تماماً لمكان مصدر صوت البائع ليحدد بأي إتجاه آتٍ، وكم يبعد الصوت عنه وهل يقترب أم يبتعد، كقط بري يسعى لنيل فريسته، قد يتمنى المرء أحيانًا أن تكون لديه بعض الصفات الحيوانية ليحدث فارقًا في لحظات كهذه في حياته، كان الحظ يحالفه في أغلب الأحيان، فيكون البائع قد اقترب من منزله فيخرج مسرعاً لإعطائه المال، لم يأخذ هاني قط أيّ ولاعة، وإنّما فقط يعطيه المال، هما إعتادا على ذلك كأنّما قد عقدا اتفاق بينهما مسبقاً "أعطيك مالاً فتعطيني بالمقابل هدوءًا"[6]، شيئان غير متشابهين، واحد مادي والآخر معنوي يشغل عقل هاني للحظات، ويعود وهو متباطئ الخطى واثقاً، لا ينظر خلفه أو حتى في عيني البائع عند إعطائه المال، يشعره براحة ذات لذة عند قيامه بذلك، ويعود لدراسته بروح جديدة، بعد أن لفظته الأحلام من قطارها الصاخب يقفز هاني لقطار أفكار آخر مصنوع من معدن الأوهام وهو لا يدري بحقيقة أنه لم ينجو من أضرار القفزة الأولى، ويراوده تساؤل يدير محرك القطار الجديد عن العلاقة بين تبادل الأشياء والمشاعر : ما الذي يدفعه ليهبه هذه الخمس وعشرين ليرة؟ هل هو تقدير لتعبه؟ ينسل من عقله خيط التفكير، شيئاً فشيئاً بدون أن يشعر كخيط صوفي ينفك عن حياكته. (يتذكر ما مر به من لحظاتٍ قليلة كمنتشٍ) إنّه ذلك اللهيب الذي يخرج من يديّه كخروج الألم من الجسد، كانتا دافئتين ممتدتين كسهم من نور

---

[5] الواجب الحسي: أعبر عنه كحاجة لفعل أمر ما، ليعيد استقرار الفكر السوي لطبيعته، إن سنحت له الفرصة، والشعور الداخلي للشخص الحسي بوضع الراحة، وإن لم يقم به سيشعره بالندم لاحقاً. وأنا لا أشبهه بالوسواس القهري هنا.

[6] - هذه الصفقة التي تعبر عن الفرصة في الشرح السابق للواجب الحسي، التي يصفها العلم بانها مصالح اكثر من انها عمل أخالقي.

لا تحملان سوى المحبة كانتا فرحتان لإعطائه المال، يغمره شعور بالراحة بعد تبخر أفكاره المشوشة من ثقل الحياة، ويعاود التساؤل بينه وبين نفسه: هل هذا السبب كاف؟ أم أنّها رغبة لكي يحصل على راحة نفسية أو ليصل لنشوة من هذا العمل تجعله أكثر تركيزاً في دراسته؟

يجاوب هاني نفسه بمعرفته بأصل هذا التساؤل: يبدو أنّها فضيلة الأنانية[7].

- يسمع صوته الداخلي يقول له: من الممكن أن يحيى لا يعلم أصلاً أنه لديك هذه الرغبة، ومن المحتمل أنّ يعتقد بأنّك مغفل فقط، على أقلّ تقدير، وأنك تعطيه المال وهو يقبله بدون أيّ مجهود.
- يجاوب صوته الداخلي: لكن التأثير الإيجابي الذي يتركه في داخلك له أثر كبير في دراستك، هو ساعدك بتجاوز ضغوطك النفسية بشكل إيجابي، فأنت في نهاية المطاف سوف تحصل على شهادتك الجامعية، و باعتقادك أنك قدمت عملاً إيجابياً، ولذلك أفترض أنك تستحق بأن يقوم شخص ما بمساعدتك في المستقبل، بالرغم من أن هذه تعتبر أنانية أيضًا، ولكنك تراها مستحقة.
- هل تعتبر هذه المساعدة التي قدمتها للبائع هي أيضًا من الضرورة أن تُقابل بالمساعدة؟ تساءل هاني مفترضاً ذلك ومستغرباً من هذا القول.
- يجاوب هاني نفسه: لا، لكن هذا الشعور بأن المرء يميل للتفكير بشخص ما سوف يساعده بالمستقبل، هو نابع عن الأمل دائماً والتمني.
- ولكن الحدثين منفصلان- يقاطع هاني نفسه كمتحدث ناقد-.

[7] -كما كتبتها(آين راند) في كتابها الذي يحمل نفس الإسم.

يخطر له أمر يغير من تفكيره في الموضوع (وذلك بالنظر إلى شخصيته كشخص قدم المساعدة سابقاً، أي صاحب تجربة).

- يجاوبه صوته الداخلي: في المستقبل ستصبح أكثر تهيئاً لنيلِ أو كسبِ المساعدةِ بصدرٍ رحبٍ، وبدونِ ترددٍ تطلبها، ولكنك ما زلت تشعر أنّها مستحقة إلى حد ما، وهذه الخبرة المكتسبة من هذا الفعل، هو ما يجعلك أكثر تقبلاً للمساعدة وهو ما سوفَ يَدفعُك لقبولها في لحظَتِها.

- يتساءلُ هاني مجدداً: ولكن في حال لم يكن الشخص قد قدم مساعدة سابقا فكيف ينظر للأمر؟

- تجاوبه نفسه الملمة بتفصيل حياة هاني: بالعودة لطفولتك ألا تتذكر؟ تجاربك السابقة التي مررت بها و بملاحظة أطفال آخرين من حولك. حيث أن المرء يطلب المساعدة عن طريق نداء من حوله بواسطة البكاء والصراخ، وهكذا يبدأ بتقبل المساعدة من قبل والديه.

- و يجاوب هاني نفسه المتسائلة: لكنها ليست فرضا عليهم؛ فهم يستطيعون تركه بدون مساعدة، فهنالك أشخاص بدون رحمة و يضيف (وقد يعتبر البعض أنّه عمل لا أخلاقي أو لا إنساني ولكن الغريزة تلعب دورها).

- تجاوبه نفسه بذلك الصوت المحاور العميق الذي له نفس صوت هاني، فيكاد هاني لا يفرق بين صوته الأول و صوت نفسه المتسائلة فتقول له: طبعًا هكذا تنمو الاختلافات الفكرية في فكرة التقبل لدى المرء فتعتمد على نشأته وعلى اعتياده على الأشياء، وعلى نوعية طلب المساعدة وحدّها الأدنى والأعلى.

وأعتقد أن الفروقات الكبيرة بين الذين خاضوا تجربة لنيل مرادهم بتعبهم الذاتي دون مساعدة وذلك ما أشعرهم أن المساعدة في بعض الأحيان أمر سلبي، لأنه سيضعفهم، ولكن بالنسبة للأشخاص الذين لم يمروا بأوقات صعبة سيجدون أن الحد الأدنى لتقديم المساعدة أقلّ من الصنف الأول، لأنه يجد أن الأمر طبيعي وهذا الحد يعتمد على تحليل الموقف الراهن، والتفكير بطبيعة العقبة المواجهة وقدرة الشخص الذي يواجهها لذلك تبقى المراقبة والتحليل شيئان ضروريان، ولكن عدم الاكتراث نهائياً سيكون انعدام بالحس وضعف مجتمعي.

يقول هاني: تباً، مرة أخرى! و يقول ذلك بعصبية و تذمر. يرهقه التفكير ويغلبه الملل والضجر من هذه المحادثة، ويختصر كل ما سرده في عقله في تلك المحادثة: أنّه ليس من الضرورة إن أراد الإحسان للفقراء، أن يعتمد على كل هذه المعرفة ومعرفة السيرة الذاتية لحياتهم.

توقف عن التفكير بعد عناء (هكذا تسحبني خيوط العقل) كأنما عقله فقاعة تنتفخ وتنتفخ، وفجأة تنفجر فتشتت كل ما يحيط بها وتتحول إلى نور أبيض، بعد هذه المناقشة الداخلية التي جعلته يفكر بصفاء تام، لأنها حلّت جميع العقد التي كان يفكر بها والأسئلة المتشابكة. يكفيه أن يشعر بالسرور والرضى في كل مرة يعطيه فيها تلك الخمس وعشرين ليرة. فأصبح يوماً بعد يوم، يهيئ المال مسبقاً قبل وصول البائع، وكان يتهيأ له صوت يحيي البائع بأحد المارة في الشارع، وإن لم يسمع صوتهُ تتثاقل عليَه الأيام حتى يلقاهُ مرةً أخرى. فأصبح تكرار ذلك الموعد في كل يوم خميس عادة لا يمل منها، أو كما يبدو له الأمر لبقائه في المنزل يدرس وينتظر قدوم البائع المتجول، الذي بطبيعته يتجول في جميع شوارع المدينة وسوف يصل إلى هذا الحي

عاجلاً أم آجلاً، وتربكه فكرة أنّه قد لا يأتي اليوم وما يزيد قلقه أنه سوف ينتظره، ويفكر بأسباب عدم قدومه حتى المرة التالية. ولهذا حافظ هاني على سرعته في الحصول على تلك الليرات القليلة التي تشتري في ذلك الوقت ربطة خبز واحدة، وكذلك يحيي مازال مصراً على العمل بشكل غريب جداً.

الفصل الثاني

شجرة الزمزريق

أثناء دراسة هاني على طاولته الخشبية المعتادة، كان يستمعُ للحركة الثانية من السيمفونية السابعة لبيتهوفن، تلك الموسيقى الرقيقة، فيسمع من بعيد صوتاً اشتاق إليه كثيرًا، يعلو ويعلو مع اقتراب صاحبِهِ، فينتفضُ مسرعاً ليتناولَ تلكَ الـ 25 ليرة المعهودة، ويبدأ بالبحثِ عنها متوتراً من فكرة عدمِ إيجادِها، لقد كان هاني منصتاً جداً للصوتِ وبلحظةٍ اختفى الصوت، مما زاد من قلقه وتوتره، وَجَدَ تلك العملة المعدنية التي أصبحت قيمتها لا تساوي الكثيرَ بعدَ أن اشتدت الأيام على أهالي البلدة، فلقد بدأ عصر الثورات، والحروب تقرع طبولها في أطرافِ البلادِ.

خرج هاني من المنزل ليبحث عن البائع يحيي، لقد كانت أشجار الزيتون تَحجبُ الرؤية من الزاوية الشرقية من الحي؛ فبعد زراعتها منذ 15 سنة لم تُقَلم بشكلٍ جيد لكي تفسح مجالاً جيداً للمشاة، وكان في نهاية الشارع من الجهةِ الغربيةِ شجرةُ زمزريق[8] وأوراقها يابسة، ولقد تساقطت أزهارها البنفسجية، التي كانت بأوائل الربيع تُعطي منظراً جذاباً للحي بأكمله، نظر هاني إليها مذهولاً وتردد في التقدم، لم يكن يعلم أن هذه اللحظة، ستزرع في ذاكرته مدى الحياة ولن ينساها قط، كانت صادمة بشكلٍ كافٍ ليجف حلقه ويثقل لسانه عن الكلام. كان يحيي بائع القداحات يمد رأسه نحو غصن من شجرة الزمزريق ويجذبه بيده اليسرى نحوَ فمِه، وكان يقضم تلك الأوراق بأسنانه من الغصن مباشرة، نَظَرَ هاني إلى يحيي بأسى

[8] - شجرة الزمزريق: لون أزهارها بنفسجي ولها فوائد طبية كثيرة، وقد تؤكل مباشرة أو مع السلطات وتفيد في أوقات القلق، ولها قرون وأوراق لها شكل خاص، تستخدم أزهارها لعلاج فقر الدم أو الضغط أو فترات التوتر وتعطى في فترة النقاهة.

وحزنٍ كبيرين، وبصق يحيي الأوراق من فمه عندما لاحظ هاني، وبقيت ورقة يابسة مكسورة الطرف ما تزال معلقة على شفاهه الجافة، كأنها تريد الإشارة إلى شيء ما، تريد القول لهاني (أطعمني). يكاد لا يستطيع أن يحرك عينيّه لتبَسُرِهما أمامه، ووضع يده على كتف يحيي وسأله: شو جوعان؟ لقد كان سؤالاً ليس إلا ليعلم أنه يشعر به، وكان يعتقد أن الجوع يقتله وهذا ما يخطر للبديهة ولهذا كانت دعوته له بعد أن رد قائلاً: لا كنت عم شمها! قالها والكبرياء يخنقه، قالها ونطقه المتقطع ازداد ارتباكاً، و ظهره يرتد للخلف كأنّما أصابه تصلب ما.

قال هاني: تعال معي نتناول الفطور سوياً فأنا لم أتناوله بعد.

مشى يحيي قليلًا ومن ثم قال بتقطعه المعتاد: لا لا، لا أُريد.

ولكن هاني كان مُصرًا، وصدم لِما كان يسمَعُهُ من نفسه من إصرارٍ شديد دون أن يفكر بلحظة بأنه لم يتحدثا من قبل، أو أنّه كان محقاً كلياً بألا يثق بأحد في هذه الأيام، لأن الأمان قد فقد خلال هذه الحرب، يبدو أن جسده فيه خلل ولكن العقل سليم، ولكثرة إصراره على مساعدته، قال هاني له بتأكيد: لا تذهب، وإن ذهبت سوف ألحق بك، سأجلب لك شيئاً تأكله.

فمضى هاني نحو المنزل والتفتّ ورائه، فرأى يحيي يمشي مسرعاً هو الآخر زاحفاً بتلك الأرجل أسرع وَمتجهاً نحو الشمال مبتعداً. قال هاني: عليّ الإسراع قبل أن يذهب أبعد من ذلك. فكر هاني بشيء يعده سريعاً، فأخذ رغيفًا من الخبز ووضع الجبن والزيت والبقدونس فيه ليصنع سندويشاً، ووضع السندويش الملتوي بعدما غلفه بورق في كيس أبيض ومعها قرص من الطماطم وأضاف قرص من كعك عيد الفطر وهو من ما تبقى من العيد، كل هذا لم يستغرق منه سوى ثلاث دقائق ولعل

هذه المدة تكون كافية للحاق بالبائع، ولكن هاني تذكر أمر إخراج الدراجة النارية من المنزل فهذا سيكلفه وقتًا أكثر، والبحث عن البائع سيأخذ وقتاً أكثر مما كان متوقعاً، كانت الدراجة حمراء اللون من صنع شركة ياماها اليابانية ذات الرقم **100** لقد كانت لعم والد هاني قبل **40** سنة ولازالت تعمل حتى هذه اللحظة.

ركب هاني الدراجة وعلق الكيس بالمقود، يعلم هاني جيداً أنّه يجب أن يقوم بتحمية الدارجة قبل أن يسير بسرعة، فهي لها عدة أمور يجب أن يضبطها قبل ذلك، كأن يضبط شراقة الهواء وألا يحرق البنزين بسرعة لأنه سوف يسبب مشاكل لأن الاحتراق أصبح أكثر صعوبة، ولكنه لم يقم بكل هذه الأمور، لأنه فقط أراد أن يلحق بالبائع، لقد كان ركوب هذه الدراجة أمرا معقداً. منذ أكثر من عشر سنوات، جاء شخص يريد شراءها وكان من أحد العربان الرحل ميسوري الحال، حيث انهُ أحبّ هذه الدراجة وعرض على والد هاني دراجة أخرى من نوع هوندا مع مبلغ خمسين ألفا ليرة سورية؛ ولكنه لم يقبل، كانت تجمعهم بها ذكريات كثيرة، فامتنع عن بيعها. تابع السواقة هاني بتمهل ليسمع صوت البائع، ولكنه لم يجده، تابع البحث مسرعاً، وفي تلك اللحظات بدأ الزيت يسيل من السندويش، فبالرغم من أنّها مغلفة بورق عندها ظهرت بعض النقاط على الكيس الأبيض الذي بدأ يلوح بالهواء، وصل هاني إلى أحد الشوارع واسمه ميس الريم[9]، كان هاني أسرع من ظبي يهرب من مفترسه؛ لقد بالغ بالابتعاد والبحث، تمهل وتوقف على مفرق طرق لينظر من حوله في حال صادفه بإحداها، فلاحظ الشاب يمشي بعيداً عنه بحوالي ثلاثمائة متر، فذهب بدراجته مسرعا وتوقفت عند إحدى زوايا الشارع لكي لا يلاحظه مباشرة.

9 ميس الريم: يعني تبختر وميلان الظبي الأبيض في مشيته.

وبعدما أوقفت هاني دراجته النارية على مسندها وقفلها، ومن ثم توجه وهو يلهث إلى البائع: ألم أقلّ لك أني سوف أجلب لك شيئًا؟ قالها هاني بتعجل، وأعطاه ذلك الكيس الأبيض وقال يحيي بلفظه المتعثر: يسلمو[10]. بعد أن ابتعد هاني عنه، نظر إليه وحاول أن لا يلاحظه يحيي من تلك المسافة لحظتها، فوجد البائع المتجول يفتح الكيس وبدأ بالأكل بشراهة تحت تلك الأشجار الكثيرة الخضرة، كان هاني محقاً بأنّ البائع كان جائعاً وأن كبرياءه يمنعه. في تلك اللحظات كانت الأشجار تحجبه عن المرأى وكأنها تغطيه بأوراقها الخضراء وتحتضنه مواسية لحاله.

خطر لهاني في طريق العودة للمنزل حادثة حصلت معه ذات يوم منذ حوالي عشر سنوات عند المغيب، حينما رأى طفلًا بعمر العاشرة تقريبًا بجسده النحيل وبشعره الأسود الناعم المُنسَدِل الذي يغطي جبهته، وأسنانه الكبيرة الجديدة، وبذلك الوجه المثلثي يمد يده ليقطف من شجرة الزيتون التي كانت مقابلة لنافذة غرفة هاني التي حفر اسمه عليها - وكانت ما تزال شجرةً صغيرةً لا يكاد طولها يتجاوز طول رجل بالغ- اعتقد هاني في بادئ الأمر و ذلك بسبب مساوئ التفكير السريع والسلبي المتكرر أنّ الطفل يريد أن يقطف ثمار الشجرة ليلعب بها، بينما كان الطفل يقطف بهدوء أوراق خضراء يانعة من الشجرة جاوب هاني بنفس الهدوء أيضًا عندما سأله بصوت ليس بعالٍ وبطريقة يبدو عليها الاستغراب أكثر من المسائلة: ما الذي تفعله؟ أجاب دون أيّة ردة فعل توحي بانزعاج أو خوف، وهو يرفع يده اليسرى حاملاً بها عدد من الأوراق المرتبة كأوراق اللعب، وكان عددها أربعة: أقطف هذه الأوراق الجديدة. لقد كان يمضغ شيئاً ما وكانت لهجته غريبة عن لهجة المنطقة، فعاد هاني ليسأله: هل تأكلها؟ و أردف قائلاً مطالباً الفتى: لا تحني الغصن هكذا سوف تكسره!

[10] كلمة بالعامية تعني (سلمت يداك).

أجاب الطفل وهو يكمل ما هو بادئ به دون أدنى صرف انتباه عن الشجرة: نعم، أمي تعمل في وزارة الاقتصاد قسم الزراعة. فاستغرب هاني من الإجابة وهو يشعر بالغضب قليلاً، تسائل هاني في نفسه :هل هو أيضًا كما يقال يريد أن يستعمل فيتامين "و"[11] في هذا العمر أم أن لديه فكرة ما لم يكملها؟ لذلك سأله هاني: ما علاقة هذا بقطف الورق؟ هل هي طلبت منك ذلك؟

أجاب: نعم - أكمل أيضًا بهدوء- إنّها تنفع إذا كانت أسناني تؤلمني، وتجعلها بيضاء.[12]

- سكت هاني قليلاً وفكر بصوته الداخلي قائلاً:لقد سمعت عن هذا الأمر سابقاً، ولكنني لم أجربها يوماً.

فسأل الطفل هاني: هل أستطيع الصعود على الشجرة؟ أجابه ممتعضاً: لا، لأنها صغيرة ولا تستطيع تحتمل ثقلك.

هذه الطريقة في الكلام أثرت بهاني لسنوات. كأنّما سمعت الشجرة هذه المحادثة و هذه الأقصوصة التاريخية، ومشاهدتها الطفل وهو يرفع من شأنها، اهتزت وكأنما ارتعشت بنشوة في كامل ساقها، كهر ينفض عن نفسه الماء بانتعاش، أحسَ الطفل وأنا كأنّما الشجرة قد اهتزت ولكننا لم نكترث لتساقط بعض الأوراق، لقد إعتقدا أن الرياح هي السبب، تناثرت أوراقها في الهواء، كنثرات ورقية قذفت وقت أعياد الميلاد، كثلج ينزل من السماء، كشكر وامتنان للطفل فتعطيه ما لديها.

تساءل هاني بينه وبين نفسه لماذا تذكر هذه الحادثة؟ وكأنما هنالك شيء مشترك، هل لأنهما قد قطفا من الشجر، مناقضاً نفسه: ولكن الأمر مختلف فشجرة الزمزريق ليست ملكهم لكن مسؤوليته كانت تجاه مساعدة البائع، وأن في كلتا الحالتين

[11] " و" هو الحرف الأول من كلمة واسطة: استخدام النفوذ لعمل شيء غير قانوني أي واسطة.
[12] منذ عهد أبقراط وجالينوس وديوسقوريدس كان يستخدم الزيتون البري في حالات كهذه.

الأشجار كانت معطاءة ولم تبخل، ولم ترفض، وهل تستطيع أن ترفض الأشجار؟! تساءل هاني كمن يدعي أن هذه الأشجار تستطيع الإدلاء برأيها أو أن تقوم بأحداث تغيير ما أو تستطيع التفاوض حول ثمارها أو أي شيء يخصها، رغم أن العلم قد أثبت أنّها تستطيع التواصل فيما بينها، وأضاف هاني فكرة جعلتهُ يشعر بالحماس: لطالما كانت الأشجار نفسها تتابع دائما كل هذه الأحداث.

الفصل الثالث

الخيانة

في الوقت الذي يعود فيه هاني إلى منزله وهو يفكر بما حدث، طافياً كالجليد فوق بحر من السعادة، يجلس البائع تحت شجرة يقضم من السندويش بشراهة وعيناه تغرغران بالدمع وتغشيان عليه الرؤية بوضوح. كانت السعادة الآنية التي يمر بها كأثر الريح في جمر معاناته، فتزيدها لهيباً وتوهجاً، فالهدوء والثبات الذي يظهره طيلة اليوم يخفي آلاماً وصراعات داخلية صماء، لا يسمعها إلا هو، كانت كالجمر تحت الرماد، أيقظتها لمسة عطف تكاد أن تكون كتأثير الفراشة فلقد خلفت وراءها عاصفة هوجاء ضربت كل أركان المشاعر فحملت معها أحزانه وذكرياته، الجميلة والمظلمة، أيامه البيضاء والسوداء، رغباته وطموحاته، نجاحاته وهزائمه، كانت تتصارع وتعبر في داخله كجرافة حنين حاملة كل ما يمر بها ووقودها أيام خلت. كان الندم لفعل خطيئته أشد الأصوات هديراً في صدره فزلة لسانه أودته لما هو عليه كانت نهاية لبداية مشرقة وبداية مأساته المفجعة هو ضحية لوالدته وسحرها، لا يعلم بحقيقة أمرها لدرجة أنه أصبح يشك بمعرفة نفسه، لقد أخفت عنه كما أخفى عنها زوجها طيلة فترة حياته حتى آخر لحظة عندما كان على فراش الموت يلفظ أنفاسه الأخيرة، وعيناها العسليتان تنظران له بحزن بعد محاولاتها الكثيرة لإيجاد علاج له وصراعه مع المرض لم تجد أعشابها أو مركباتها نفعاً معه، استعانت بأطباء كثر ولكن لم ينفع شيء، قال لها زوجها بقلب مكسور وبصوت يثقله التعب: هذا الطفل يكون ابني! قَالَت: لطَالَمَا كان كَذَلِكَ ولَمْ تُشْعِرنَا بِغَيْر ذَلِكَ. قال مندفعاً: إنّه بالحقيقة ابني من صلبي. صدمت

زوجته وعضت على شفتيها وهي تتراجع للخلف خطوة وعيناها تنهمران بالدمع و ترتجف: ماذا تقول؟ رغم أن الشك كان يراودها لسنين، إلا أن الحقيقة كانت أكثر إيلاماً، كانت لحظة اكتشاف خيانة زوجها جارحة إلى عمق كبير، وضعت يداً على فمها المتّشدّق بالبكاء، واليد الأخرى على خصرها، عالقة بين الماضي المزيف التي تغلفه الأكاذيب، وفي حاضرها الصادم. كان الترف والبذخ الذي يعيشان به دافعاً له لخيانتها، ورغبته الكبيرة بإنجاب طفل يحمل اسمه ليكون وريثه، أخذ الطفل بعد رفض العشيقة تربيته، فلقد كانت تجد نفسها صغيرة على إهدار عمرها في تربية طفلها وهي في الثانية والعشرين من عمرها، كانت غارقة في المتع والشهوات والأموال، فلقد أعطاها بيتاً وأموالاً تكفي أن تعيلها هي وابنها حتى تشيب، بعقد زواج مدني، كانت السلطة المزيفة تملكها، فالمال يغير في نفوس الضعفاء من الفقراء، فيصبحون أكثر طمعاً وقسوة، كما يُقال: "الفقر يريدُ الكثير، لكن الجشع يريدُ كل شيء". أخذ منها الطفل ليعتني به بدلاً عنها، وأخبر زوجته أنّه ابن أحد أصدقائه الذين قضوا نحبهم في أحداث "حماة" في عام 1982م. ربته كما لو أنّه كان ابنها وكأنما نمى في أحشائها. كان شك الزوجة في محلِّه، أو على الأقل هذا ما كانت تشعر به لفترة طويلة، لكنها لم تكن تحمل دليلاً ، ولم تكن تريد أن تزجه ضمن متاهة تعويذاتها، أو تتربص به، ولم يكن هنالك قاتل مأجور أو شبكة لمراقبة الأزواج، ورغم أن عطر الفتاة المميز يفوح من ملابسه المشبعة بأوقات الخيانة الشبقة، فتلك العادة عند النساء بشم ثياب أزواجهن، كانت عندها ايضاً فلم تكن هي استثنائية عنهن، رغم أن قلب المرأة لا يخطئ بهذه الأشياء أبداً، فتغيير بسيط فقط في معاملته لها، واختفائه الدائم وسقمه ومصاريفهُ الزائدة، وحتى وجود شعرة طويلة على ملابسه، كانت دليلا كافياً لإدانة زواج دامَ سنوات، هذه هي غريزة النساء، لا الشعور بالذنب ولا أيّ شيء آخر

سينجيه من الطوفان الأعظم، لكنها لم تفعل شيئاً ولم تُلقِ عليه اللوم حتى لغياباته المتكررة، فهنا لو بدأت ستتدهور الأمور حتى يصلا لنقطة اللاعودة، هي النقطة الحرجة في كل علاقة وفي كل زواج، في كثيرٍ من الأوقات يستمر الزواج رغم الخيانات التي تحدث من قبل الأزواج، خوفًا من النساء أن يقعن من عش الزوجية إلى مخالب المجتمع التي لا ترحم، ولكن المواقف الاستثنائية هي التي تغير الاتجاهات دائماً في المشاعر، فينقشع عن بصريهما كل ما غلفه الحب لسنوات.

هزت الزوجة رأسها مردفة سؤالها الأول بسؤال آخر صارخة: لماذا؟

لانه يوجد أكثر صدقًا من هذه اللحظات، فعلى فراش الموت تُباح الأسرار وتُقال آخر الأمنيات، وهي تعلم أن ما حاولت أن توهم نفسها به، هو فقط كمهدئ ومخدر لشكوكها وآلامها ؛ استسلمت لأفكارها والآن انقلب السحر على الساحر وصدقت أكاذيبها الواهية، التي كانت توهم نفسها بها لتشعر أنّها بأمان، كمن يضمد نزيفاً داخلياً بالشاش، حتى أن الحقيقة أصبحت صعبة التصديق، وكأنما نسيت أنّها هي من اخترع هذه الكذبة، هنا عقل الإنسان لو كان بشراً لَلَام نفسه.

لم يستطع الزوج الرد عليها، فقط نظر إلى الأعلى كأنّما يرى السماء من سقف الغرفة، فأمسكته بقبضتها من قميص نومه الذي يرتديه لآخر مرة، وهي تهزه وتقول له: لماذا؟ لماذا؟ وفي هذه اللحظة يدور في ذهنها كل شيء تريد توضيحاً له، واختصرت جميع الأسئلة بـ (لماذا؟)، هل هي تتساءل عن خيانته، أم عن توقيت البوح بهذا الأمر؟ أم عن فراقه لها وتركها في منتصف الشقاء؟ وأخذت نفساً وهي تنظر لعينيه الثابتتين، صفعته بيدها على خده وبقيت عيناه ثابتتان -لم تعلم أيضاً لماذا صفعته - وصرخت بأعلى صوتها رافعةً رأسها وهي تستجدي السماء، كأنّما طُعِنَت بخاصرتها

غدراً، كانت صرختها ممزوجة بآهاتِ حزنٍ وآلامِ فراق، ولكن تحول كل شيء إلى ألم يشوبه الحقد؟ لم تجد تفسيراً لحالتها ولا للمنطق الذي يسيّر حياتها، وكأنما رُبِّطَت يداها ولم تعد تستطيع أن تفعل شيئًا سوى البكاء.

لطالما كانت "سحر" عطوفة ومحبة وكان عملها يدر عليها ربحاً كثيرًا، ولكن انشغالها في العمل وانغماسها به لسنوات جعل الزواج يسير بمنحى روتيني وأكثر برودة، اعتقدت أن السِنين قامَت بتأثيرها، ولكن لم تدرك أن ما يتغير هو داخلها لا الغير، فترك هذا أثر على زوجها وشعر بالوحدة رغم أنهما يجتمعان تحت سقف واحد، لكن جدران بيتهما أصبحت باردة[13]. تعرفت على عدد من الخيميائيين المتخفين في المنطقة، وكانت تعرف السحر وتتقنه، وجعلت منه عملها، لذلك كان العمل يسرقها من عائلتها ومن زوجها وحتى الفراش، كانت وفاته ذات وقع شديد عليها على الرغم مما كان يفعله؛ فلقد كان تواجده في المنزل يشعرها بالونس، وقررت أن تعاقبه بعد موته، لا جنازة ولا تعزية، فدفنته في قبو المنزل. اعتنت بالطفل يحيى كأنّه ابنها وبالرغم من ذلك بقي الطفل بالنسبة لها كظل يهيم حولها، لم تدرك ملامحه قط، كانَ شاحباً بعيداً مبهماً كالظل، لم تحاول أن تغوص بتفاصيله، أصبح كزائرٍ عابرٍ بالنسبة لها، أو كضيفٍ على منزلها. لم تكن تعلم سحر أن والدة يحيى الحقيقية كانت تراقبه من بعيد، فقلب الأم لا ينسى الطفل الأول ولا الأخير، ولكن الطفل الأول له طابع خاص دائماً، كأنّما يعتصر كل ما هو جميل من أبويه ويبقيه لنفسه، كأنّما يولد أكبر من سنه متقدماً على إخوته بأعوام. بقي يحيى وحيداً، وحيداً في منزله مع كتبه وألعابه، لا أخ ولا أخت يتشارك معه هذه الطفولة، ووالدته الحقيقية تبعث لهم المال على شكل

[13] هذا يسمى الطالق المبطن.

تسديد ديون بعد وفاة الزوج، حتى أتى يوم وانقطعت كل دفعات الأموال فلم تترك عنواناً أو اسماً حقيقي.

كان يحيى متقد الذكاء طموحاً شغوفاً بالعلم، بعد أن أصبح في السادسة عشر من عمره، **طلب من والدته** أن تساعده لتحسن قدراته وذكائه، بوصفة سحرية أو عقار أو أيّ شيء يزيد من تفوقه، كان طموحه يشحذ طمعها في المثابرة والعمل في بحثها في جميع أنواع العلم والسحر وطب الأعشاب -كانت تعمل لسنوات وسنوات مع أحد أساتذتها والخيميائي المتواجد في المنطقة، بعدما كانت تعمل في الطب العربي[14] وأصبحت من أشهر الطبيبات في المنطقة، ولهذا وسعت تجارتها فيها، ولكن تطور العلم جعل تجارتها خاسرة، فأصبحت تعيش بعد وفاة زوجها على مساعدة المساجد والجمعيات الخيرية بعدما لمعت في عقلها فكرة استحوذت عليها، وسخرت نفسها لسنوات من العمل على هذه الفكرة لتنقذها من الحالة المزرية التي هي فيها، وبقي هذا كبحث مخفي بينها وبين معلمها وكأنه سر لا يجب البوح به، ولهذا طورته وأقامت عليه التجارب، ونجح معها ولكنها لم تعلن عنه للملأ، وأبقت ذلك سرها الخاص وهي تتاجر به بالخفاء بطريقتها الخاصة بالسوق السوداء للسحر الأسود، حتى ابنها لم يكن يعلم بالذي يحدث - وفي اللحظة التي نظرت بها إليه شعرت أنّها أول مرة في حياتها تشاهدهُ بهذا القرب، وسألت نفسها، كيف توالت تلك السنين دون أن تألفه ؟ وقالت لنفسها: إن ما أريد تقديمه لهذا الطفل سوف يفوق كل توقعاته، وسيستخدم ثمار المعرفة التي أنتجتها بنفسي، ولطالما أبهرتها تلك الشجرة المحرمة التي تعرف بشجرة المعرفة الوارد ذكرها في قصص الخلق، وكانت السبب في طرد آدم وحواء من الجنة، وكما ذكر في سفر التكوين فهي تسبب لهم الخلود كما أخبرهم

[14] في تلك المنطقة هكذا كان يسمى الطب البديل.

الشيطان بذلك، ولقد ذكر أيضًا أنّها شجرة الحياة، أمّا في التوراة فلقد أضافوا أيضًا معرفتها بالخير والشر، ولذلك شعرت الساحرة أن هذه فرصتها لاثبات أنّها محقة وأن تجاربها لن تذهب سدى فقط على الزبائن في سوق السحر الأسود، وسيذكر التاريخ اسم هذا الفتى، كانت رغبته بالتمرد في الحياة كما رغبة الساحرة بعقد الصفقة معه، على الرغم من خطورتها فلقد أرادت كسر كل القيود، ولطالما كانت هذه النقطة محط جدل مع معلمها، ومع كل المعتقدات السائدة في كل الأديان، فلقد توصلوا في تكوين ثمرة المعرفة، التي تعطي مالكها القوة العقلية والمعرفة الكبيرة، وسرعة في التعلم والموهبة.

كانت اللحظة التي تطرح فيها فكرتها على معلمها في أحد أقبية المدينة وهي غرفة تجاربهم الخاصة، كشفت كل المخاوف في عينيه، كان معلمها من الأساتذة الكبار في السحر، وكان جسده النحيل وشعره الأسود الطويل الناعم الذي يصل لأسفل أذنيه، وأنفه الطويل نسبياً لوجهه، يعطيه ملامح حادة مع ذقنه ذات النهاية المستدقة، قال لها وهو يحضر إحدى تعويذاته المعتادة لأحد الزبائن وبيده بوتقة زجاجية ذات عنق رفيع، وهو يرفع البوتقة ويصب ما تحتويه بحذر شديد في وعاء يمسكه بيده الأخرى، ويرفع يديه إلى مستوى نظره لكي يكون دقيقا بالكمية التي تسكب، يسألها: ما هي المخاطر المحدقة بهذه الثمرة؟

- سوف يحمل في داخله الحقد والكره والغرور دائماً، ولكن عكس ذلك، ألا وهوَ الحب، سوف يقوى مع الإرادة والشغف الذي يحمله، فلكل شيء حدين. قالت ذلك سَحَر وهي تراقبهُ و هي جالسةً على كرسي خلفه، فقال المعلم وكأنه يسأل: في حال انكسر السحر وانهار كل شيء.

- تقول الساحرة سَحَر: من الأفضل أن نقوم بترك الاختيار للشخص الذي يريد أن يحصل على هذه الثمار.

- يقول المعلم وهو يُنزل البوتقة والوعاء ويضعهما على الطاولة: وهل سوف نشترط على حامل الثمرة أن يكتب تعهداً يحمل رغباته؟

- تجيب وهي تنظر في الاتجاه الآخر بعيداً عن معلمها، مثبتةً عينيها كأنّما تتصور لحظة حدوث ذلك الأمر: لا، بل أسوأ من عقد أو اتفاق، ستصبح هذه الثمرة كاللعنة ولن تُمحى، ولكنها ستكسر في حال أباح بسرها صاحب الثمرة، عندها سوف يقيد بعذابها.

-يقول وهو يحرك ما في الوعاء من خليط: اللعنة، ما كل هذا؟

تخبره عن قصة ثمرة المعرفة وتقول له وهي تنظر له مباشرة محنية ظهرها قليلاً، وتهز برأسها كأنها تحاول الإيماء بالموافقة: ألم تكن المعصية، وأيضًا الكلمة، هما السببان للعنة كل البشرية، ونزول آدم وحواء على الأرض؟

- يقول لها متشنجاً حانقاً وينظر إليها مباشرة دون أن يحرك قدميه، مائل الظهر واضعاً يديه على الطاولة ورأسه يخرج من بين كتفيه كقط بري يلتفت لشيء ظهر بجانبه بشكل مفاجئ: وهل سوف تحوليه لعبدٍ لك؟

-قالت له: ليس تماماً.

-ماذا؟! يسألها متفاجئاً، فلقد قال كلمته مجازاً. ومن ثم يرمي شيئًا في الوعاء وتخرج منه فرقعة كالألعاب النارية المصغرة فيخمد ما في الوعاء، ويتجه نحوها ليستمع لكلام

سحر بحرص أكبر، وهو مقطبٌ حاجبيه. ويتابع: هذا يعني أنّك فكرتِ بالأمر وتريدين أن تجعلي لنفسك أتباعاً، أليس كذلك؟

-تجاوبه وهي تعتدل في جلوسها على الكرسي: لكل شيء ثمن، وأنا لا أُريد سوى مساعدًا لي ومعيناً لما تبقى من حياتي، وهذا في كلا الحالتين إن كسر السحر أم لم يكسره فهو سوف يبقى تابعاً لي، لذلك لا تظلمني أو تحملني شعوراً بالذنب، فكل ما سيحصل سيكون رغبة من حامل الثمرة لا أكثر، وأضافت مبتسمة: فبلمخاطرة تحلو المغامرة.

- يقرب كرسيه إلى جانبها مهتماً وهو يجلس يسألها: أخبريني، إلى أيّ حد سوف يسوء الوضع؟

- تقول برصانة، كسيدة أعمال تدلي برأيها عاقدةً يديها: في حال انكسر السحر سوف يفقد كل ميزاته، سوف يفقد كل طاقته ويصبح ضعيفاً، ويعود شخصاً عادياً، ولكن ليس بالمعنى الحرفي، فحامل الثمرة يبقى حراً طيلة كتمانه للسر، ولكن بعدها فقط، سوف أستغل نصف طاقته الجسدية -ترمقه بنظرة وكأنها تسدل أجفانها بدلال وخفة، كعاشقة تغوي عشيقها- والنصف الآخر يهيم في الطرقات تائهاً، يعمل لكسب رزقه.

- هذا تحدٍ كبير! يقول وهو مقطبٌ حاجبيه مرةً أخرى.

- إنّه تحدٍ بينه وبين نفسه، إمّا أن يبقي الأمر سراً، أو أن يهوي من أعلى مراتب العقل إلى القاع، وما هي إلا نتيجة لطيشه -رافعةً يدها وملوحةً بها، كأنها تبعد ذبابة عن وجهها، وكأنما تومئ بأن الأمر لا يعنيها- فهو المذنب وهو أيضًا القاضي.

- هل مسَّكِ شيطان؟ يسألها بلهجة قاسية كأنّما يقوم بتوبيخها.

تنظر إليه من طرف عينيها العسليتين، ويكاد رمشيها يغلقان، وثم تحدق للأسفل وتنظر للأرضية مسندة رأسها بيدها اليسرى، كأنّما تفكر وتكبت غضبها الذي أشعله لتوه، صامتة لا تقول شيئًا. وبعد لحظة الصمت تلك تتابع الكلام: هو سوف يعود لكامل قواه في حال عودته للمنزل، لن يحتاج كل طاقته خارجه، فلديه ما يكفيه، وطبعًا يجب أن يكون لدي ما يكفيني.

- ستأخذين طاقته، و تهلكين جسده، ما كل هذا اللؤم! وطبعًا هو يبيع نفسه لك، أليس هذا شبيهاً إلى حد كبير بالكلاسيكيات التي تحدث دائماً في صفقات الشياطين؟

- ترفع ظهرها فينتصب رأسها وتفرد يديها: ولكن يوجد اختلاف، فقلبي ليس قاسياً إلى هذه الدرجة كما تصفه، فلقد تركت لصاحب الثمرة ثغرة، عليه اكتشافها بنفسه، أو عند موتي أنا، فسوف يكون راضياً إلى حد ما. ولكنني لن أبوح له بهذا الجزء، وتضحك بصوت عالٍ.

ينظر إليها المعلم بغضبٍ.

- تقول له منهية ضحكتها الاستفزازية: وهل تراني أعطي شيئًا بالمجان؟ ثم إنّه خيارهم، وطمع الإنسان لا ينتهي، ولهذا سوف يكون لدينا دائماً زبائن.

- يرخي كتفيه لا مبالياً، ولكنه تساءل: كيف سيقوم بنفس اللحظة بخدمتك في المنزل وخارجاً في الوقت نفسه؟

- بالتجزؤ.

- ماذا؟ يفتح ثغره للهواء، ما الذي سوف يُجزئ؟ يكمل مندهشاً، هل ستقومين بتقطيعه، وكيف سوف يَحيى؟

- تضحك وتضع يدها على فمها وهي ترجع رأسها إلى الخلف، وتقول له: لست سفاحا أو مجرما متسلسلا يمثل بضحاياه، ما قصدته هو تجزيء طاقته.

- يجاوبها: الطاقة! - يصمت قليلاً وهو يفكر ويدور بيده في الهواء كأنّما يقلب تفاحة ويستكشفها- إن كان قصدك الروح، فالروح لا تُجزئ لأنها من الناحية الدينية – وهو يبطئ بالكلام قليلاً رافعاً يده كأنّما يتحدث عن شيء في الغيب- هي ليست بشيء مادي والأحكام التي تجري على الأرواح لا تجري على الأجساد - يهز رأسه كأنّه ينفي فكرتها - أو أن أحدا ما قد لمسها من قبل، أو قدر على مشاهدتها بالعين، ولكن نرى أثرها من خلال الموت كما يقول الدين طبعًا.

- وماذا عن العلم؟ تسأله واثقة من نفسها متخذة نفس وضعيته الجسدية. وتتابع، العلم يتحدث عن الموت على أنّه توقف العقل عن العمل وتتوقف وظائف الجسم كالقلب، ولكن العقل هو الأساس. المخ، القلب، الرئتين ... - تقولهم ببطء كأنّما تذكرهم واحداً واحداً كمن يقرأ قائمة طعام – وتكمل تعداد: الموت الإكلينيكي، والموت الجسدي، والموت الخلوي. أمّا في الدين هو ببساطة الانتقال لحياة أخرى ما بعد الموت. هل ترى مدى بساطة الدين؟ إنّه يقول لنا كلمتين، كلمتين فقط وينهي الأمر. تسكت قليلاً غير منهية كلامها، وتكمل: أمّا العلم يغوص بالتفاصيل، لأنه أمامنا ونشعر به، مثلاً نضع الإنسان ونراقبه أثناء موته، ففي الموت الإكلينيكي قد يعود الشخص للحياة بعد خمس دقائق من توقف القلب عن العمل، عن طريق أجهزة أو شخص ما، أمّا الجسدي فتنقطع التروية الدموية عن القلب والعقل ولكن الجسد

يبقى تحت الأجهزة، يقال إن الروح تخرج من الجسد، والبعض لا يعتبره موتاً حقيقياً لأن خلايا المخ تكون ميتة. أمّا الموت الخلوي تموت خلايا الجسم بسبب انقطاع الأوكسجين والجلوكوز عنها - تستكمل حديثها كأنّما تبادلت الأدوار بينها وبين معلمها فلقد تعمقت بابحاثها حتى غاصت في بحور العلم أجمعها- لذلك احتمال اننا نؤمن بالروح، ولكن عند الإيمان بوجودها من خلال ما يحدث قبل الموت بوجود ذلك الجزء السرمدي المخفي عن أعيننا، ولكن يبقى له دور في حياتنا. عندما نعيش حياة واحدة سوف تحتسب لنا رياضياً روحاً واحدة وجسداً واحداً وعقلاً واحداً، ولكن من الجهة الدينية، إذا قمنا بتقسيم الروح، أيْن سوف يوضع كل جزء؟ وهل نستطيع فعلاً أن نقوم بسجنه أو الإمساك به؟ هل للروح إرادة؟ وعند تقسيم الروح هل سيحاسب الجزءان منفصلين عن أعمالهما يوم الحساب؟ لقد شغلت تفكيري هذه الأسئلة مسبقاً.

- وهل وجدتِ جواب؟
- أن أضع الجزء الثاني من طاقتهِ في جسدٍ لا يحملُ إرادة، وهو سوف يكون محول للطاقة.
- كأنك تلمحين إلى العلوم الهندية واليابانية والصينية، فلديهم راتسو[15]، تشاكرا[16]، يوكي[17]، كي[18] ،النين[19]، قد تبدو أسماء من عالم المانغا[20] والأنيمي ولكنها حقاً موجودة في تلك الثقافات.

15 طاقة روحية متخصصة بمراقبة أرواح الأموات.
16 طاقة روحية تتفعل وتستخرج من طريق أختام الجيتسو
17 ليست أسطورة وال خرافة وهي تعتمد على عزيمة وإرادة كل انسان بشكل خاص به.
18 طاقة جميع الكائنات الحية وهذه الطاقة يمكن التحكم بها والسيطرة عليها.
19 طاقة يضخها ويقوم بتنشيطها الجسد وهي أقرب لمسلسلات الأنمي اليابانية.
20 المانغا: رسوم الكرتون اليابانية المتحركة – الأنيمي من Animation وتعني الحركة

- لقد أنشأت علاقة بين الطبيعة (بصفتها المصدر الأول للسحر) وبين الجسد الذي سوف يكون الوعاء الثانوي للسحر، لهذا أحتاج جسدا وعقلا ولو بحالتيهما البدائية، وأما عن مصدر الطاقة سيكون ما يميز المدينة في السابق وهو الماء، سوف أستخرج الطاقة منه عن طريق الكائن الجديد.
- وماذا ستصنعين بهذا الكم من الطاقة؟
- سوف أعود شابة من جديد وكل سنوات حياتي التي أمضيتها في بحثي هذا، سوف أستردها قريباً، وسيكون هذا الوعاء لدي خادماً في منزلي.
- هل سيبقى الجسد الآخر يحمل نفس الطاقة؟
- بما يكفيه ليبقى حياً.
- كيف ستقومين بفعل كل هذا؟ هل سيموت حامل الثمرة؟ هل سوف تقطيعه إلى أجزاء؟
- تجاوبه بجدية وكأنما حسمت أمرها: الثمرة هي التي ستقوم بهذا العمل هنا، فهي ستأخذ جزءًا من كل ما يملكه صاحبها، جزءًا قليلا من العقل ومن الجسد ولدينا عنصر واحد ناقص، ولكن ما يميزها هو تخاطرها مع كامل المنزل وكل ما ينتمي له، سوف يكون قلب المنزل وسيكون حارسي الخاص.
- وماذا عن الروح؟ أهي الجزء الناقص؟
- عندما ذكرت الروح، اعتمدت على فكرة التخاطر، حيث أنّه عبارة عن نقل المعلومات من مكان لآخر أو من شخص لآخر، وهنا سيتخاطران بالطاقة والمعلومات أيضًا، سيكون عينيّ خارج المنزل.

- هل تعنين أنّه سيتخاطر ليس مع جسد الأساس فقط، ولكن معك أيضًا ومع المنزل وأشياء أخرى؟
- هذا كثير جداً وأكثر من توقعاتي! ولكن سيكون رائعاً، أليس كذلك؟

لا تسمع إجابة أو رداً حتى بإمائة، فقط يتبعثر صوتها بهواء الغرفة الخانق، وتسمع صوتها ثانية في داخل عقلها، كتسجيل قديم أصبح متآكلاً لكثرة استعماله. فيقول وهو يفكر بهدوء تام: لطالما كان تواجد الروح محط جدل، ولكن عند التطرق للحديث عنها، لابد أن نتذكر التناسخ، وكذلك (إعادة الخلق) كما هو متواجد عند العلويين وبعض الطوائف الدينية والصينيين، وجميعها تجتمع على فكرة إعادة بعث الروح من جديد وتعيش في جسد آخر، حاملة معها بعض الذكريات، ولطالما سمعناها كثيرًا في القصص الشعبية، وكانت كظواهر ما وراء الطبيعة، قد أثبت بعضها بمعلومات كان يدلي بها البعض، كأن يقول: أنا مِتُّ شهيداً في العام كذا، ولدي عائلة في المدينة الفلانية، ولدي أطفال أسمائهم كذا وزوجتي اسمها كذا، وكل هذه المعلومات بعد التحقق تكون صحيحة، وهذا ما يوصف بتقاطع العوالم الموازية، كأن الروح هي عبارة عن مخزون زمني[21]، أو مخزن زمني لأحداث حياتية، لكنها ليست مادية، تتوازى في مكان ما أو حتى في زمان خاص بها، له أبعاده الخاصة وقياساته الخاصة، وبحدوث تقاطع بين مساراتها، تحمل بعضًا من ذكريات الآخر. لهذا عند تجزؤ الروح يعني هذا تجزؤ ممر كامل وخط زمني لحياة ما، لهذا لا يطبق عليها أحكام المادة كما ولو كانت وحدة تخزين مادية[22]، وفقط عندما تكون كذلك نستطيع التفكير بالتجزئة، والفكرة تبقى فكرة كما عند أفلاطون وكالعرب، فلفظ روح قريب جداً على كلمة ريح، ولكنها لا تعادل الريح بمفهومها، ثم غير من لهجته و أصبح ينظر الى طالبتهُ

[21] رأي المؤلف
[22] رأي المؤلف

سحر بالحسد و قال لها و هو ينظر اليها من طرف عينيه وجسده يتجه باتجاه ورأسه باتجاه سحر، و عضلات فكه متشنجة: علينا أن نبدأ بانتاجها وتجربتها. شعرت سحر بالخوف من هذه اللهجة و هذه النظرة المرعبة من عيني معلمها.

الفصل الرابع
بعد الصدمة في السوق

عند وصول هاني إلى المنزل، فكر ملياً بالذي حصل في هذا اليوم، كانت تلك اللحظة التي أكل فيها البائع من الشجرة لا تفارق مخيلته، تساءل والعاطفة تدفعه للتفكير عن عدد الفقراء في هذه المدينة، المعلومين منهم والمجهولين، كم عدد من يوحي أنّه بأفضل حال بينما هو في الحضيض؟ هذا السؤال راوده كثيراً خلال عمله الحالي في إحدى الفرق التطوعية المحليةِ التابعة لهيئة دينية، وهذا ما يجعلها محط ارتياب في الثقة التي قد تُعطى لها و كيف ينظر إليها البعض، حيث كانت تجمع الإحصائيات لكل أفراد المدينة لتقييم أوضاع العائلات النازحة أو العائلات التي في حاجة ماسة للمساعدة وهي إحدى أهدافها، و الإحصائيات دافع كبير لمساعدة الآخرين، و هذه الفرق التطوعية تجوب أحياء المدينة، وكانت يد هاني تثقل قبل قرع جرس أيّ منزل، حيث كانوا قلقين فيما إذا كان صاحب المنزل يستطيع استضافتهم أم لا، فهم لا يريدون أن يشعرونه بالحرج، لأن ذلك هو طبع المجتمع في المدينة، فلقد كان الكرم صفة طاغية، وأحيانًا لا يجدون في المنزل حصيراً حتى للجلوس عليها، ورغم ذلك أصحاب البيوت يقدمون الشاي لهم، كانت بعض البيوت ترسم على جدرانها تشققات من آثار القصف من الحرب الجارية، و فعلًا هي تكاد أن تقع على رؤوسهم. انتفخت تلك الفقاعة من الأفكار، والتي جعلت بؤس العالم كله يقبع في تفكيره، وهي تصبغ قلبه بالسواد والكره لهذا العالم القاسي، لوهلة يشعر هاني أنّه

مُذنِبٌ أيضًا بحقهم، ويسمع صوته الداخلي مرة أخرى يقول: إن الحياة غير عادلة، ما الذي جاء بهذه الأفكار إلى عقلك وأنت تقوم بأقصى طاقتك بالعمل المطلوب منك؟

يُقِيم حالتهُ ويتَمعن، ومن ثم يعود صوته الداخلي للكلام، وتأتيه النوبة الهيستيرية المعتادة التي انفجرت من لومه لذاته، ويسمع أصواتاً تشحذ همته، تقول له: قم، قم ... افعل، تبرع، ساعد، انهض... ويضع باطن كفيه على جبينه ويدفعهما للأعلى فيرتفع حاجباه ويكشر عن أسنانه، وينفخ: أوف... مع زمجرة في حنجرته، لقد كانت إنهاء لذلك التوتر الذي حدث فجأة. انفجرت فقاعة أفكاره مع تنهداته ويقول لنفسه يكفي هذا اليوم. قال لنفسه ليفرغ ما في ذهنه من أفكار: يجب أن أتحدث بالأمر لوالدتي هاقد أتت من عملها وهي الآن في المطبخ، وستكون فخورة بي. خطر في بال هاني لو تحدث معها، فإنه سيفقد شعوره بعمل الخير وقد تذهب الحسنات التي قام بها كما هو في المعتقدات في دينه والمجتمع، حيثُ يعتبر الإشهار بعمل الخير يذهب من محاسن هذا العمل، ويفقده بريقه وجماله داخلنا، ولهذا قد تكون تلك الحسنات ما هي إلا جمال يزداد في داخلنا كغيمة تهطل بمطرها فوق حديقة أزهار أفعالنا وأخلاقنا الحسنة فتنثر رذاذ عطرها فينا ليعبر أجسادنا ولعله يصل إلى الأرواح المشابهة الأخرى فتعطيها لمسة رطبة من الانتعاش فتذكرها بالحسن الإلهي. إنّه يعلم أن والدته لن تخبر أحدًا وأنّها متفهمة لكل هذا، فهي من علمته كل هذه الأمور، فحدثها بما حصل، وبعدما فتح قلبه لها قالت: أنا أيضًا أعطيه دائماً المال، فهو فقير وعائلته فقيرة، سألها هاني: هل تعرفينه؟

قالت: لا، ولكن أعرف من الناس أنّه وحيد لوالدته، ترى الأصحاء يشتكون من العمل، وهو يعمل رغم مرضه - وأنهت كلامها- الله يعين البشر؟ نحن بأفضل حال والحمدلله.

قال في نفسه: طالما أن البائع في المدينة، فهناك من يعرفه، ولربما أتعرف عليه بشكل شخصي، وأسأله بشكل مباشر.

مرت على هاني الأيام في انتظار عودة البائع أكثر ثقلاً من سابقها، فكر هاني بذاك وراودته أفكار كثيرة وذكر لنفسه أسبابا أكثر لعدم مجيئ البائع وتساءل: هل أخفته آخر مرة، عندما قمت بمساعدته؟ أم أن تلك اللحظة التي وجدته يأكل فيها من تلك الشجرة هي التي تمنعه من القدوم لهذه الحارة وخوفاً من مصادفتي؟ أعتقد أن هذا هو السبب؛ تباً لي تباً! يقول لنفسه ويتابع: لم يكن يتوجب عليّ أن أشعره بأنّي رأيته، وأنني أشعر بالشفقةِ تجاههُ. إنّهُ لأمرٌ مزعجٌ ومنفرٌ معا، ويجاوبه صوته الداخلي: ولكن ما حصل كان صادماً وعفوياً، فلم تمالك نفسك! يتابع صوته الداخلي: عليك الحذر في المرات القادمة، فرؤية أمور صادمة في الحياة، قد تعرضك للخطر أيضًا، فما عليك سوى ألّا تبالي، فقط أبقِ ملامحك ثابتة ولا تجعلها تُشعر من يراقبك أنّك متفاجئ أو مصدوم وخائف أو منزعج، أصول الدبلوماسية الناجحة هي إخفاءُ ما يحملهُ المرء في داخله. ويقول هاني لنفسه: أنا أدرس العلوم السياسية والإدارة وأريد أن أصبح دبلوماسياً، لأجل هذا يجب أن أعتاد على هذه الأمور.

وبعد فترة طويلة، وأثناء تواجد هاني في سوق المدينة يشاهد البائع المتجول صدفة في أحد أزقة السوق حاملاً بيده القداحات منادياً بأعلى صوته: قداحات قداحات. ومازال يقطعها بخنقه في منتصفها ويدفعَ باقي الكلمةِ كتنهيدهِ تحملَ آلامِ مئةِ عامٍ من البؤسِ.

يتجه هاني إليه ويعطيه الخمس وعشرين ليرة المعتادة ولا يأخذ شيئا منه، فقط يسأله ما هو اسمك؟

هذا السؤال فقط جعل من سَمِـعَ هاني من المارةِ يلتفتُ إليه باستغرابٍ، وكأنما هاني قد مس شيئاً عاليَ القدسية وخطى في أرضٍ محرمةٍ، إن هذا السؤال زرع الشك والريبة في المارة كما في البائع، ورغم ذلك أصرَ أن يعرف، ولاحقه بضعَ خطواتٍ، وبعد ذلك أعاد سؤاله، وجاوبه البائع: لماذا؟ بصوته الجاف والمتقطع.

فقال له هاني: ألا تتذكرني؟ أنا الذي.. وسكت لأن البائع أدار وجهه للطرف الثاني وأكمل مسيره مقاطعاً كلام هاني متجاهلاً إياه تماماً.

شعرَ هاني بالريبةِ وبالاستغرابِ. تدخل أحد المارة الفضوليين، من الذين كانوا يراقبون تصرفات هاني وتدخله بشؤون البائع: لماذا تريد سؤاله؟

جاوبه هاني بعفوية: أنا أُريد التعرف والتقرب إليه فأنا أُريد مساعدته.

فقال: لقد اعتقد أنّك شرطي متخفٍ، وتريد أن تحرمه من العمل، فعمله بدون رخصة، هل فهمت ما الذي حصل؟

بدت على هاني معالم الدهشة فلم يخطر على باله هذه الأفكار، فهذا الخوف لا شك أنّه يثير الذعر في داخل كل الباعة الجوالين.

قال له الفضولي: هل تريد اسماً؟ رافعاً رأسه للأعلى كأنّه يملي عليه ذلك بصيغة الأمر. فإذًا قل له أحمد، وهذا يريحك.

كان هاني يفكر ويقول لنفسه: فعلاً هل أُريد اسماً فقط؟ يالغبائي! مرة أخرى أخطئُ، إن الدبلوماسية لا تأتي من الفراغِ، عليّ ألّا أكون مباشراً معه.

واختفى البائع في الأزقة بين جموع المارة وبدون أن يترك أيّ أثر، لا صوت ولا أحد من الذين على مد بصر هاني يسير باعوجاج، أو يسحب رجله. أنكسَ رأسه للأرض بحيرةٍ، وقال لنفسه: أضعتُ فرصتي. وأثناء عودته إلى المنزل شاهد شخصاً

يسير في أحد الشوارع، كأنّما هو البائع، وإذْ بهِ يصرخُ بأعلى صوتهِ : قداحاتٌ ، قداحاتٌ . . . ومعَ تقطعهُ المعهودَ للكلمةِ .

سار هاني في طريقهِ، ولم يعرهُ الانتباهُ، إلى أنَ وصلَ تقريبا إلى محاذاتهِ، وأعطاه مالاً. ولكنَ البائعَ رفضَ المال عندما عرفه وميزه، وقال له: أنا فقط أُريد مساعدتك. نظر البائع في عيني هاني بشكل مباشر بغضب وبلحظة خاطفة أصبحت السماء حالكة بالسواد وكل ما يحيط بهما أصبح داكناً و شعر هاني بلحظة رعب، وتراجع خطوة للوراء وبلحظة خاطفة عاد كل شيء إلى طبيعته و الى لونه الطبيعي و السماء الصافية الزرقاء والشمس الساطعة عليهما و قال البائع: لماذا تريد مساعدتي؟

فقال هاني: أنا فقط أعمل في منظمات إنسانية وأعتقد أنني أستطيع مساعدتك - استغرب هاني من نفسه كيف خلق هذا العذر بشكل عفوي وبدون تحضير- وبعد سكوت قليل قال البائع له: أُريد... وكانت كلمته متأخرة لدرجة أن سامعها يظن أنّها قبول، وليست رفض.

هل تستطيع اخباري عن مكان سكنك؟ أستطيعُ أن أملأَ لك استمارةً، ومنها قد تصلك بعض المساعدات -أدرك أنّه أيضا يقوم بخطوة أعاقت تقدمه بالحديث وأرجعته للخلف لأن هذا منفر- فقال له البائع: لا. ألح هاني عليه الطلب، وقال له: اسمي هو هاني، وأنا طالب جامعي، وما هو اسمك أنت؟ هل هو أحمد؟ كما قال لي ذلك الشخص في السوق؟ فأجابه مثقلاً على حرفي الياء كأنّه يطحن شيئًا بأضراسه: يحيى.

حسناً، يحيى، فإذًا هذا هو اسمك، قالها هاني باستغراب.

ثم أكمل هاني: يحيى تشرفت بلقائك، إن كنت ما تزال -فكر هاني قليلاً وفي عقله يقول: لا، لن أقول له عن مكان منزلي لكيلا يتذكر الحادثة وتابع بعد لحظة سكوت- تعمل فأنا سعيد لأجلك، لأني حتى هذا العمر لم أعمل يوما عملاً خاصاً بي، إنّك تقومُ بعملٍ كبيرٍ. استطاع بهذه الكلمات أن يصلح قوله ويخفي سؤاله الذي كان

سيجعل الأمور تزداد سوءًا. ولكن لم يجبه يحيى بشيء، فقط بقي ساكناً ينظرُ إليه بجمود. شعر هاني أن لا مجال للتقدم في الحديث، طالما أنّه يرفض الإفصاح، ودّعه هاني و مشى يحيى متابعاً البيع و المنادات، ولكن هاني لم يبتعد كثيرًا فلقد أبقى يحيى تحت ناظريه، وحاول هاني إخفاء نفسه عن نظر البائع، لكي يحاول اتباعه في الشوارع، فمضى الوقت حتى المغيب وهو يسير خلفه وكأن أمر تتبعه سهلاً حتى اختفى صوت يحيى، وسار هاني خلفه بصعوبة إلى أن وصلا إلى أحد الأحياء المغيبة في المدينة في ذلك الحي الشرقي الشمالي بالمدينة الذي كان يُشعر هاني في كل مرة يدخله، أن أهلها ليسوا كباقي أهل المدينة عامة، فلديهم لهجتهم الخاصة وأزقتهم الضيقة، التي تتراكم في زواياها القمامة كتلال صغيرة، والأطفال الذين شاهدهم يلعبون في الشوارع سعداء يصرخون بأعلى أصواتهم ويتشاركون الكرة، وكأنما دخل قرية فقيرة معزولة متواجدة ضمن المدينة، وأيضًا يضيفون بعض الأحرف لبعض الكلمات فمثلاً: كلمة كيفك؟ يقولونها: إشكيفك؟ فلقد أضافوا حرفين اثنين إلى هذه الكلمة، وقِس عليها باقي الكلمات، بطريقة إضافة أحرف تميز لهجتهم، حتى أن طريقتهم بالكلام والسير لأغلب النسوة تكاد تكون موحدة، ميلان بالخصر وكوع يدٍ مشدود باتجاه البطن، وتكاد اليد الأخرى لهم تلوح بالهواء كأنها لا تنتمي للجسد، والأطفال يسبون ويلعنون ويقولون الكلمات البذيئة من عمر مبكر، فلا يوجد شيء يحمي مسامعهم في الشوارع فهنالك أناسٌ يمرون من كل الأعمار، ويشتمون في أيّ وقت، وما على الأطفال سوى التِكرار، فهم مثل الاسفنجة يمتصونَ كل شيءٍ، و الأفواه مزاريب في ليلةٍ شتويةٍ ممطرةٍ أغرقتها قطراتُ غيومِ الفقرِ.

وصل هاني لأحد الشوارع التي تطل على ساحة واسعة وعبرها يحيى وهو يسير بسرعة أكبر، لم يكمل هاني طريقه، لانه سوف يصبح مكشوفاً، وإن بقي وراءه سوف يفضح أمره والساحة لم يكن لها معابر جانبية، ودخل يحيى زقاقاً ضيقاً.

لكن عرف هاني الآن أيْن هو بيت البائع، إنّه يقع هنا في هذا الحي الفقير، فتسلل بحذر شديد وعبر الساحة، كان الزقاق الذي دخل به يحيي مغلقاً ويتواجد في نهايته البيت. كان البيت مسوراً ويوجد في جانب السور شجرة واحدة، خضراء غنية بالخضرة لم يشاهد مثلها بالجوار، وفي داخل السور بيت لا يوجد حوله شيء باللون الأخضر، كأنها أرضٌ جرداء قد لمستها يد شيطانية وحولت كل شيء إلى رمالٍ وحجارةٍ. شعر هاني بالخوف قليلاً وعاد إلى بيته ويستعيد سعادته تدريجياً والحماسة بمعرفته شيئاً عن حياة البائع تغمره شيئً فشيئاً، فهذا سوف يفتح أمامه حلقة جديدة من المعرفة، لتساعده لتقديم المساعدة له.

الفصل الخامس

حلم الينابيع والشجرة

في اليوم التالي بعد الظهيرة كان الجو حاراً، وكعادة أهالي هذه المدينة جلسوا أمام بيوتهم ووضعوا الكراسي والطاولات والنرجيلة ويشربون الشاي أو المتة التي أصبحت تقريباً في كل بيت، عاد هاني لذات الحي ليكمل بحثه ويسأل، ولكنه أراد أن يقوم بلعبة خطرة، قد تكلفه عمله وسمعته في العمل وتحرمه من كل أنواع المصداقية لدى الكثيرين في المستقبل المهني. فلقد أراد استغلال عمله في المؤسسة الخيرية، وأن يذهب بأحد الجولات مع شبان يعملون بجمع المعلومات، وعندما قرر الفريق الذهاب لجمع المعلومات، لبِسَ سترة العمل التطوعي، وحَمَلَ مصنفاً ورقياً وبكل ثقة دخل أحد الفرق وادعى أنّه يساعدهم وذلك بحجة أن الفريق يحتاج إلى عدد أكبر من المتطوعين ولأن لديه أسبقية بالعمل لسنوات عديدة أخذوه بمحمل الجد. في تلك اللحظة عند وصول هاني إلى ذلك الحي الذي فيه يسكن يحيى كان الفريق متعب ومنهك، وبسبب أزقته الضيقة والمتشعبة يتوه فيه كل من يدخل إليه أول مرة، وعندها انسل هاني مع أحد الشبان، وذهبا معاً إلى منزل يحيى مباشرة في ذلك الزقاق الضيق الذي كان خالياً تماماً، فالساحة كانت أكثر إتساعاً للجلوس فيها فلم يكن أحد يقطع الطريق بجلوسه في هكذا زقاق ضيق، لم يكن يعلم ذلك الشاب لماذا اختار هاني هذا البيت تحديداً، ولم يبالِ لذلك، بسبب الحرارة العالية والعمل المضني، الذي جعله يتثاقل عن سؤاله، لمَ هذا البيت؟ بقي ملاصقاً له ولم يفعل شيئًا، ولم يسمع أحدا يرد على طرقات الباب، عاود هاني الكرّة ولكن ما من مجيب، وطرق

الباب على الجيران وخرجت سيدة وسألها بعد السلام: هل من أحد في هذا المنزل؟ مشيراً إلى بيت يحيى.
أخرجت السيدة رأسها من شق الباب بشكل مائل ونظرت للمنزل الذي يشير له هاني، فقالت: إنّه لشاب ووالدته، لكننا لا نعلم عنهم شيئًا، فهم لا يختلطون مع الجيران منذ سنوات. هم لا يريدون الكلام مع أحد وأنهت كلامها بجملة - وكأنما تتردد بشكل تلقائي على ألسنة الناس كثيرًا- (الله يعين العالم).
قال هاني وهل والدته تستطيع الكلام؟ - معتقداً أن سيدة البيت لا تستطيع التواصل مع أحد بسبب عجزها أو بسبب المرض أو لأسباب يجهلها - قالت السيدة: لا أعلم إنّه أمر خاص بهم، وأنا لم أدخل بيتهم قط، حاولت سابقاً أن احتك بهم ولكن لا جدوى. وأضافت وعيناها تكادانِ أن تخرجا من مقلتيها بطريقة مشحونة بالغيظ وحركت رأسها يمناً و يساراً و تصاعدت قوة صوتها تدريجياً: لديهم قدرة عجيبة على تدبير أمورهم.
شكرها هاني وذهب مع صاحبه، وسأل أشخاص كثيرون، إلا أنّه لم يتلقَ إجابة، وكأنما الأمر أصبح أكثر غموضاً وتعقيداً، وتساءل: هل هذا ممكن؟ شخصانِ في الحيِ منذ سنواتٍ ولا يُعرَفُ عنهم شيئا؟ بعدما عاد الى الطريق خلع سترته وأنهى عمله ووضَع كلَ الأوراق في المصنف وأعطاها لأحد زملائه، ولم يكمل طريقه معهم. وأثناء تجواله في طريق العودة لمنزل يحيى بغية البحث أكثر لمح رجلاً خمسينياً كان قريباً من الزقاق فتردد في سؤاله، ولكن توجه إليه مباشرة بعدما حسم أمره، فتحدثَ معهُ وأطالَ الكلامَ فأفصحَ بهِ وهيأَ ووطئَ لهُ الدربَ ففتحَ قلبُ الرجلِ وطلقَ لسانه فقال: إن الشاب الذي تسأل عنه لم يكن مريضاً بل كان شابًا طموحًا عصامياً مجتهدًا في مدرسته، ولكن والده إختفى وبقيت والدته ترعاه.
وتابع هاني مساءلتهُ والرجلَ يجاوبهُ، عرف هاني الكثير عن والدة يحيى ووالده، أما الرجل لم يكن يدري ماذا حدث عندما أو بعدما توفى والد يحيى، قال الرجل لهاني

لقد تغير كل شيء وأعزي تدهورُ حالةِ يحيى الصحيةَ إلى حادثةٍ يقولُ البعضُ إنها بسببَ إفراطهِ بشربِ الكحولِ غالبا ولكنني لا ندري ماذا حدثَ بعدَ انقطاعِ إخبارهِ سمعنا فقط أنه توفي ولم يسأل عنه أحد، حيث يقول البعض انه دفن حسب رغبته في مسقط رأسه، ولكن حالتهم المادية وكل أعمالهم كانت دائماً مبهمة، ومعيشة الأم وابنها كما هو معروف تعتمد على المساعدات التي تقدمها المساجد، ويسأل الرجل بدوره: لماذا تسأل عن يحيى؟

قال هاني: لقد صادفته كثيرًا وتعرفت عليه، وهو نجول لا يتكلم كثيراً، فأنا فقط مهتم بأمره، وأشعر أنّه بسبب حزنه لا يريد التحدث أو التواصل، أضاف قائلاً: بكل صراحة أريد مساعدة يحيى.

قال الرجل: حسناً، لطالما كانت تساورني الشكوك حولهم ولكن الآن لم أعد أبالي، ولكن ما لفت نظري على مر السنين هو تلك السيدة - قالها وصوته ينخفض ودون وعي- كيف حافظت على صحتها ونشاطها وشبابها طيلة هذه السنوات؟

عفواً؟ لم أسمعك جيداً. سأله هاني.

لا لا شيء، لا تشغل بالك. أنهى هاني حديثه مع الرجل بشكل عفوي وودعه، وكأنما هذا الحوار حدث عن طريق الصدفة والاهتمام بأمر يحيى لا أكثر.

أصبح لدى هاني صورة كبيرة عن حياة يحيى، ولكنها معقدة وغير مترابطة، مما دفعه للتساؤل ما هو الرابط بين الماضي والحاضر؟ هذا ما أقلقه، كيف لعائلة أن تبقى وحيدة في حي كامل؟ كيف لشاب طموح عصامي أن يصبح في هذه الحال؟ وكيف يتدبرون أمرهم فالمال قليل، والعمل في مهنة بيع القداحات لا يكفي لإعالة شخصين معاً، الأمر أصبح بالنسبة له لغزٍ يريد حله.

عاد هاني لمنزله مرهقاً متعباً من كثرة التجوال في المدينة، وتذكر أن هذا ما يفعلهُ يحيى في كل يوم ألا وهو العودة للمنزل، فلا شك أنّه يحتاج للراحة والطعام لشحذ قوته كل يوم.

دخل هاني غرفته المطلة على شجرة الزيتون التي أصبح الآن عمرها عشر سنوات ولقد أصبحت تستطيع حمل ذلك الطفل الذي أراد تسلقها ذات يوم، ففي هذهِ الشجرة ذكرى قد كتبها باسمه، وعندها كانت الشجرة صغيرة وبعد أن كبرت أصبح اسمه يكبرُ معها، وتصبحُ تلك التشققات التي كونت الحروفَ أكثر اتساعاً وأكثر وضوحاً، يبدو أن اسمه قد ارتبطَ بها، أصبحت هذه الشجرة تذكرهُ دائماً أنّه أيضًا أصبح أكبر عُمراً ونُضجاً مِن ذي قبل، كانتِ الشجرة تحجب عنهُ رؤيةَ السماء الزرقاء، ولكنهُ اعتاد عليها وأصبح يراها أكثر جمالاً مع وجودِ السماء خلفها، وعِندما يَستلقي على سريرهِ ينظرُ من خلالِ النافذة وأغصان الشجرة تُغطيها، وفي الليلِ يتركُ النافذة مفتوحةً ويرى الشجرة وانعكاسِ الضوء عليها فتُشعِرُهُ بالأُنس معها.

في هذهِ الليلة أنهكهُ السير فأرخى جَسَدَهُ المُتعَبَ على سريرهِ كمُحاربٍ أُصيبَ في كلِ جزءٍ من جسدهِ بسهمٍ، يَستَلقي على كتفه الأيسر وينظر للنافذة، فغط في نومٍ عميقٍ كطفلٍ رضيعٍ، وفي تلك الليلة راوَدَهُ حُلمٌ عَن منزل البائع، ظَهرت تلك الشَجَرة المُجاورة لمنَزِلِ البائع أكثر إشراقاً وزهواً لَقَد أذهَلَتهُ، ولفتت انتباهه، شَعَرَ وكأنها تخفي شيئاً أو كأنّما وجودها بجوار المنزل، يحكي قصة أخرى، لماذا هي بهذا الزَّهوُ، وحديقة المنزل جرداء قاحلة؟ وعندها تقدم نحوها وبدأت رجليهِ تنغرسان في الأرضِ، نظرَ إليهما وكانت الأرض موحلة، رفع نظره للشجرة، وشاهد ينابيع تتدفق كأنها ينابيع حارة عند ساقها، وفجأة انفجرت الينابيع من الأرض ومشت كالسواقي بين منازل الحي، وبدأت تسيل خارجة من ذلك الزقاق كنهر صغير، وكان هنالك أصوات رياح وهواء يدفعه للأمام نحو المنزل ولكن المنزل أصبح غريباً فلقد أزيل السور عنه والمياه روت الحديقة الجرداء حتى أصبحت موحلة تماماً ومليئة بالبرك، عندها فكر أن

هذا غير منطقي وينافي الواقع واستيقظ. أول شيء وقعت عليه عيناه مع شروق الشمس بحوالي السابعة هي الشجرة التي أمام النافذة كانت تتحرك بعنف وكانت تهتز كلها، ولكن لم يشاهد أحداً حولها ولا حتى رياح عاتية، قال هاني لنفسه: أنّها نسمة عابرة. لم يتذكر هاني من حلمه سوى رجليه المنغرزتين في الوحل و انفجار الينابيع. لم تكن تلك الأحياء مشجرةً مثل حيهم، كانت الشجرة الوحيدة في زقاق منزل يحيى التي لديهم فقط بجانب منزل يحيى نفسه. أخذ هاني نفساً عميقاً واستعاد وعيه وجلس على سريره قبل أن يقف، واضعاً كلتا يديه بجانبه مستنداً عليهما ويستعد للنهوض، أخذ وقته قبل أن يقوم بذلك، فقط يفكر بالحلمِ ويعيدُ مشاهدتهُ في عقلِهِ لم يكن واضحَ المعالم ولكنه استعادَ مقتطفاتٍ منهُ، فنهض واتجه نحو النافذة ونظر إلى الشارع، فرأى جاره يفتح محله الذي قام بإنشائه في أحد غرف المنزل، واستغرق بالنظر بعد ذلك في شجرة الزيتون المقابلة لنافذة غرفته وتمعن فيها، وشاهد اسمه الذي أصبح أكبر حجماً بمرور الأيام، وكانت هنالك دائماً بحوالي الساعة السابعة صباحاً يمامةٌ تقفُ فوق النافذة وتتنقل بينها وبين كابل الكهرباء والشجرة، وتصدر هديلها، وهنالك عُشٌ صغيرٌ فوقَ الشجرةِ لعصفورٍ دوريٍ يزقزقُ، وكأنهم يقدمون عملاً موسيقياً ينعش الفؤاد والعقل، كمنبه طبيعي يصحى على صوتهم رغم مرور السنوات، تأمل كل هذه الأشياء التي أصبحت كروتين جميل يشعره أن ما ينتمي إليه حقاً هو الطبيعة، أكثر من الأبنية الناشئة وهذهِ القطع الإسمنتية، لقد تابعَ روتينهُ الصباحي وبقيَ ذلكَ الحِلم في عقلهِ يراودهُ وأصبح ذلكَ الشغف بمعرفةِ كاملِ قصةِ حياةِ يحيي الغامضة دافعًا لا ينفكُ عنهُ للتقدمِ بهذا الأمر.

وأصبح يُفكرُ ويجترُ الأفكار وينسجُ الأحلام حول صاحبهِ البائع، حتى أنّه قد نسيَ نفسه وأحلامه الوردية حول المُستَقبَلِ، لقد انتابتهَ لحظة من الغضب جعلته يتأفف ويتنهد فلقد انزعج من نفسه.

تناول هاني فطوره، الذي كان قليلا من الشاي، الجبن البلدي والخضار والخيار، وكانت وجبتهُ الرئيسية الزيت والزعتر، وبعدها حضر رَكوةً من القهوة وجلسَ على طاولة الدراسة، متأملاً الجو الهادئ والسماء الزرقاء الصافية وهذه النسائم التي تهز أغصان الشجرة فتتمايل كمن يهتز طرباً لسماع أغنيةٍ انحنى للأمام، وأسند يديه على الطاولة وصب فنجانه الأول الصغير، ولقد اعتاد احتساء فنجانين صغيرين لا واحداً كبيرٍ، وتركها كعادته ترتاح لتترسب الشوائب. القهوة التركية تصنع في الركوة[23] حيث تغلى بالماء الساخن وتصنع بعناية وتُترك حتى تستقر كل الشوائب في قاعها، وخصوصاً إن أضيف لها قليلٌ من الهال، لقد جرَبَ هاني إضافة قليل من أعواد القرفة ذات مرة مع القهوة الخفيفة، وأعجب بها فلقد أعطتها مذاقاً يفوق الوصف، أصبحت أكثر نقاء وطعمها أقلّ حدةٍ وعلى اللسان خفيفةً، ولكن القرفة المطحونة تجعل القهوة أكثر ثقلاً ومرارتها تصبح غير مستساغة. أدارَ هاني الفنجان وجعلَ أذنهُ ناحيةَ اليمين وأمسَكَهُ منها حيث كانت صغيرة ولا يستطيع أن يمسكهُ بإصبعِهِ من أيّ مكان، ليسَ بسببِ الحرارةِ ولكنهُ يحبُ أنْ تجريَ الأمورُ بشكلها الصحيح واعتادَ عليها، كان والده دائماً يشحذهُ ويذكِرُهُ أن يفعل الأشياء بشكلها الصحيح، وهذا فضلٌ كبير لوالده، من أصغر الأمور إلى أكثرها تعقيدا وأهمية، فالتفاصيل مهمة كالتفاصيل في لوحة الموزاييك المنقوشة على الفنجان بزخرفتها العربية كأنها جدران قصر من قصور المشرق، رفع هاني الفنجان ولامست أول رشفة شفتيه بسخونة لطيفة، وشعر بها تجري في مجراها كأنها سيلٌ من الرجال المتأنقين بالزي الأسود الرسمي، ويمشون بسيقانهم النحيلة الطويلة، وعلى رؤوسهم المكورة الصغيرة يضعون القبعات الطويلة، وتلك العدسات المدورة على عين واحدة، ويتمايلون بخطاهم الكبيرة المتباعدة، وينقرون بعصيهم على جدران بلعومه، ويهرولون في مريئِهِ فينتفضُ جسدهُ، ويُوقظونَ كلَ خلية منه، وينادون: هيَا استيقظ، هيا اعمل، هيا تنشط... بتلك الطريقة

---

[23] الركوة: إناء يصنع فيه القهوة.

المُتطلبة، وبعدها يتماهون عند آخر البلعوم كثائر اقتحم البرلمان، وكسر تلك البلادة والرسميات المتَحَذلِقة، ونفضت القهوة كل غبار التعب الثقيلِ عن عقل هاني، وشد شفتيه للأمام ليشربَ ثاني رشفة، مركزاً ناظرهُ على تلك الشجرة، وتأملها وهو يستمتع بالنسيم المُعتَدِل الجميل الذي يحمل رائحة الشجر الجميلة المشبعة بالأكسجين والرطوبة، وتَذَكَرَ حلمهُ في الليلةِ السابقةِ، كأنهُ يعيشهُ للحظات فيتردد عليهِ كأنما اجتاحَ هاني نوبةً منْ الهذيانِ بدأتْ بالتقلبِ في رأسهِ، ولاحظ أًن جذع الشجرة يتموج وكأنما هنالك شيء تحت لحائها يتحرك كأفاع تتماوج، وتصدر طقطقة وفرقعة، حرك هاني رأسه لليمين واليسار ليتأكد هل ما يشاهده صحيحاً أم أنّه بسبب انعدام الرؤية الجيدة؟ ووضع من يده فنجان القهوة على الطاولة وتحرك نحو النافذة ووضع كلتا يديه على طرف النافذة مسندهما بحذر شديد وكأنما يحاول الاقتراب من قفص حيوان وحشي سيستيقظ بأيّة لحظة وهي الحقيقة أنّه داخل القفص والوحش في الخارج، إنّها الشجرة! لم يدرك بعد ما هو خائف منه بالفعل، أهي مخيلته أم ما يشاهده؟ كأنّما أكل فِطرًا ساماً، وأصبح لا يميز بين الحلم والواقع.

حاول أن يستعيد رشده ولم يكترث لكل لما شاهده، أدار ظهره لها وعاد لطاولته الدراسية وهو يرمق الشجرة جلس على الكرسي "لم تعد تتحرك، بقيت ساكنة " قال ذلك لنفسه، اجتاحه شعور بالانزعاج بسبب ما راودته من تخيلات كما إعتقد، أكمل فنجان القهوة وعاد تركيزه الطبيعي، وتابع التحديق بالشجرة وكان هاني عند نظره لساقها، وبدون وعيه تشعره أغصانها المتماوجة بأوراقها كأنّما طبع دماغه في الجزء العلوي من الشجرة وشكلها يشبه الدماغ وهذه التموجات تعطيه إحساس كتدليك لقشرة مخه وبصورتها المتحركة تثير الرعشة في دماغه تدريجياً حتى يزيل كل التوتر من عقله، وبعدها يستغرق في محاضراته، مر يومه بشكل طبيعي لا شيء استثنائي، تناول غداءه مع عائلته وذهب للسوق مع أحد أصدقائه، وفي المساء ذهب للنادي

الرياضي رغم أنّه لم يكن ملتزما به بشكل دائم، وبعد ذلك تناول كمية كبيرة من الفواكه والعصائر، ودرس حتى غلبه التعب والنعاس، ودخل في نومٍ عميق، لم يستغرق سوى بضع دقائق حتى دخل في نومه، وفي تلك الليلة راوده نفس الحلم في الليلة السابقة.

الفصل السادس

يحيى

في عمر السادسة عشر كان يحيي مجتهداً في دراسته ومتميزا دائماً، لذلك بدأ نجمه في الصعود في سماء المدرسة وأصبحَ طموحه يكبرُ ويعظمُ شيئا فشيئا عندما بدأَ بقضمِ فطيرةِ الغرورِ الشهيةِ التي استحوذتْ على حواسهِ،وضخمتْ غرورهُ وطمعهُ في الآنِ نفسهِ ، طلبَ منْ والدتهِ أنْ تساعدهُ بخلطة أوْ وصفة سحريةٍ لتزيدَ منْ ذكائهِ وتفوقهِ على الجميع ، رأى في عينيها العسليتينِ لأول مرةٍ نظرةً لمْ يعهدها منْ قبلٍ ، كانتْ نظرةُ استغرابِ وحماسَ ، وتحولتا باتساعهما لشكلٍ أكثرَ رعبا .

- سألها: ماذا بك؟ هل أزعجك طلبي؟ هل هذا مستحيل؟

رفعت رأسها وأبقت نظرها عليه، واستقامت وقالت: لا، أبداً، طلبك مجاب ولكنني لم أتوقع ذلك منك.

- حقاً؟! يقولها باستغراب ومنبهر فرحاً، هل لديك طلبي؟ إن هذا رائع!

قالت له والدته وكأنها تريد أن تلجم حماسه: ولكن.. همهمت وسكتت، وتغيرت ملامحها التي كانت مشرقة إلى أنَ أصبحتْ أكثرَ جديةً وتلكَ النظرةُ الغريبةُ أصبحتْ أكثرَ بهتانا، فكرت في مصيره المشبع بالمخاطر، وهذا في حال إفشائه السر، لكنه سينال عظمة كبيرة، فهو ذكي جداً ولن يفعل أمراً كهذا، وقالت في نفسها: عطفاً عليه سوف أخبره بشروط السحر.

بعد كل هذه السنوات من البحث والتجارب والدراسة مع معلمها، وجدت سَحَر ثمار المعرفة واستطاعت بالخيمياء أن تجد مرادها، وحققت تجارتها ربح كبيراً ولكنه بقي سرها الخاص الذي تخفيه عن طفلها،لقدْ كانتْ مطامعُ البشرِ للوصولِ للكمالِ هو

طعمها لجذبِ ضحاياها الزبائنِ؛الذينَ لمْ يكشفْ عنهمْ، لقد كانت هي أول من تناول طعمها وسقطت في فخها ولكنها لم تكن تدرك ذلك، كان شغفها للوصول للخلود والشباب الأبدي من خلال تلك الثمار[24]، فلطالما كانت النباتاتُ مصدراً هاماً للسحرِ، خصوصاً السحر الأسود، وتعتبر الأشجار وثمارها كعالم كامل بحد ذاته لأنها تعتمد على العناصر الأربعة (الماء والهواء والتراب والحرارة أي النار)[25].لقدْ كانتْ السعادةُ التي تمنحها الثمارُ لمتناولها هيَ ساعاتٌ مشروطةٌ يلحقها الغرورُ . كانتْ سحر تعاني منْ نفسِ المرضِ وهوَ مرضٌ (البحثُ عنْ الكمالِ) حيثُ كانوا يضعونَ توقعاتٍ لأنفسهمْ ويصلونَ لأبعدَ مما يحلمونَ ، أما المجتمع الذي يقف عثرة أمامهم دائما، كان قاسيا جدا معهم فالناجح يُكَون لنفسهِ أعداءً، وعندما يفرض المجتمع قيود أكثر عليه سيعكس ما في داخله ويصبه على غيره أيضا من ممارسات كانت تمارس ضده، فينتقد كل من يراه ويحاول التصحيح للجميع ويهاجمهم وتثير رغبة المزيد من النجاحات ولفت الأنظار له، لكي يصبح المهيمن على كل شيء والأفضل والأمثل.

ولكن هنالك فئة أخرى من الموهوبين بالفطرة والطبيعيين في تصرفاتهم، نجد فيهم التواضع ولا ينظرون لأي شخص بنظرة من يسعى للكمال، وهم يعطون بدون مقابل وينشرون الأمل في كل دروبهم، وهذا ما يفتقده الصنف المريض بالسعي نحو الكمال.

بعدما قررت سحر أن تخبر يحيى بشروطِ سحرها وعن ثمار المعرفة، ترددت في داخلها في اتخاذ هكذا قرار، وأثقل كاهلها فبين اندفاعها لتحقيق مطامعها، من جهة وأنّها لا تريد إيذاء ابنها من جهة أخرى، شعرت بضيقٍ في صدرها وكأنما هذين القرارين حصانان مسرجان متعاكسان، ربطا منْ سرجيهما كلُ منهما بحبلٍ، فالأول يشد

---

24 - ثمار المعرفة

25 هي العناصر األساسية في تكوين الكون كما يعتقد الخيميائيين، ولكن حالات المادة كثيرة.

يدها اليمين والآخر من يدها اليسار بكل قوتهما الجبارة وكلٌ في تجاهه، فكانت تلك القرارات تمزق رئتيها من الضغط، فقدت السيطرة على توازنها للحظات وجلست على الكرسي، وطلبت من يحيي الجلوس أيضاً، وشربت من كأس الماء الموضوع على الطاولة، ثم قالت له وهي تسند رأسها براحة كفها الأيسر ومسندة مرفقها على الطاولة: استمع جيداً - وتابعت - لكل شيء قواعده الخاصة وأنت تطلب شيئا عجز عن تحقيقه من سبقك، فيتوجب عليّ إخبارك عنها لانك ابني، فأنا لم أخبر أحدًا بهذه التفاصيل مسبقاً، لقدْ كانتْ سرا طيلةَ السنواتِ السابقةِ وأنتَ بعدِ سماعكَ ما سأقولهُ لكَ عليكَ اتخاذُ القرارِ.

- جلس يحيي على كرسيه وأنصت لها، بعدما رفعت رأسها، وبصرامة أكبر تحدثت وقالت: إن هذه الثمار ستحقق لك أمنياتك، ستصبح شخصاً متقد الذكاء وسريع التعلم وسوف تمتلك قوى عقلية لم يشهدها أحدٌ سابقا.
- بحماسة كبيرة واندفاع قال لها: هذا ما أطمح له.
- رفعت يدها اليمنى قليلاً وقالت: رويدك، دعني أُنهي كلامي؛ فما سوف تسمعه قد يغير رأيك؟
- يحيي متحمساً: أخبريني المزيد،؟ ماذا علي أن أفعل؟ وما هو المقابل لكل هذا؟
- قالت له لكل أمر وجهان، وجه حسن والوجه الآخر سيء، وأنا لم يَخِب ظني بك، لأنني توقعت منك هذا التساؤل، من الطبيعي بذكائك أن تستنتج الأمر بسهولة - أكملت كلامها- السحر له شروط وقواعد عليك اتباعها وإن خالفتها سوف تقع في مصيدتهِ، لم أكن أعلم أنّك سوف تطلب هذا الشيء مني ولكنني سوف ارشدك للطريق الصحيح.
- ازداد خوف الفتى وبدأ يشعر بالريبة فسألها: هل سوف يصيبني مكروه، أم ماذا؟

- قالت له رافعة يدها ثانيةً مشيرة بإصبعها السبابة كتنبيه له: إن اتبعت القواعد سوف تعيش حياة رغيدة، وتابعت بصوت خفيض وعميق أكثر، أولاً السحر الذي تصنعه ثمار المعرفة يخسر ويضعف إن شعرت بالحقد والكراهية أو الغرور، وقد تتحول كل هذه الطاقة السوداء الناجمة عنها، لأمور أكثر سوداوية لا تتمنى حصولها لك.
- قال لها بعدما عدل كتفيه: هل يعني في المقابل إن ابتعدت عن هذه الأمور الثلاث فسأصبح أقوى؟
- قالت: أضفْ أنَ عكسَ ذلكَ هوَ الحبُ والشغفُ بقلبٍ صافٍ ،هذانِ الأمرانِ سيقومانِ بحمايتكَ ويجعلانكْ تزدادَ قوةً ، سوف أكشف لك سراً لم أخبرهُ لأحدٍ قبلكَ، إن السحر مصنوعٌ من النباتات ولهذا يعتمد كثيرًا على مواد الطبيعةِ، وإن أكلتَ من النباتاتِ وأفرطَت بتناولها قد تصاب بالصداع وآلام شديدة، ولكن لا تقلق فإنها لا تدوم، فهذا يحدث بسبب التفاعلات مع مواد السحر، وهذا يؤدي إلى خلل وظيفي مؤقت في أجهزة جسمك.
- سألها: طالما أن هذا السحر ينتمي للنباتات، هل يجب عليّ تناول هذه الثمار بشكل مستمر؟ فلربما أثرها يضعف؟
- تقول وهي تنظر بإعجاب كبير له، ولبديهتهِ السريعةِ: لهذا الأمر أسلوبٌ قدمهُ قديم السحر، وهو نوعٌ من التعويذات وهو الأختام، ويسمى (ختم الجسد) بهذه الطريقة ستُختم طاقة الثمرة في داخلك، وهو بدوره سيتصل مع ختم آخر في المنزل، ومنه سيستلم الطاقة وأنت كذلك، ولكن لا تشغل بالك بهذه الأمور الآن، ما يهمك أنت أن تحافظ على الختم ولا تكسره، لأن مصيرك مرتبط به.

- سألها وهو ينظر للأسفل ويقول بكلمات متقطعة: أنت قلتِ، أن الختم، من الممكن كسره، فماذا سيحصل - سكت قليلاً ونظر إليها مباشرة وتابع- إن كُسِرَ؟ وكيف يحدث ذلك؟
- قالت له مطمئنة إياه وبصوت حاد قليلاً، وارتفعَ حاجباها واتسعت عيناها بعدما غيرت من وضعية جلوسها ورفعت رأسها عن يدها: يا بني إن هذه الثمار صنعت للتجارة ولكسب المال، وتابعت الكلام بسرعة أكبر معتقدة أنّها تغطي على ذلة لسانها: فضائقتُنا قد زادت بعد وفاة والدك، مشيرة له بيدها اليمنى بإصبعها السبابة، وهي تقول: أنا وأقدمها لك وبكل حذر، فعليك أن تتعامل معها بحرص شديد، ولكن أن استعملت معرفتي فستكون بأمان من كل ذلك.
- يقولُ لها محدقاً بعينين حادتين بعد أن أمال رأسه للأسفل قليلاً: لم أفهم بعد، ما ترمين إليه، ما علاقة وفاة والدي بكسر الختم، وبكل هذه الأمور؟ وأيضًا كيف تكسبين المال؟إنكَ تجعلينَ الأمورُ أكثرَ تعقيدا ولا أكاد أفهمُ شيئا مما تقولينهُ .
- قالت له بعدما وقفت على قدميها: تعال معي إلى القبو، هناك سوف تعرف كل شيء. وسوفَ تشاهدُ بأمِ عينكَ .

نظرت إلى عينيه الطفوليتين بعدما رفع رأسه للأعلى وهو جالس على كرسيه، وهي تقف منكسة رأسها للأسفل.

شعر الآن يحيى بخوفٍ حقيقي وبرودة في أطرافه، وحتى عينيه أصبحتا أكثر ثقلاً من ذي قبل فمحت تلك النظرات التي توحي بالذكاء من على محياه، استغرب من نفسه كيف تتبعها نحو قبو المنزل، وهي تسير أمامه ويسند نفسه على الجدران ويتعكز





عليها كأنّه يزحف على الحائط، يفكرُ ويحاولُ توقع ما قد يرى، فقط مخيلته دفعته نحو الجنون، أيّ حركة غير متوقعة سوف تثير فزعه.

فتحت قفل الباب، وقد كان باباً سميكاً مصمتا متعدد الطبقات، وكأنه باب خزنة مال وليس باب قبو. انبعثت من الداخل رائحةُ رطوبةٍ قويةٍ برائحة الخشب.

خطى وراءها خطواته الأولى في الممر بحذرٍ شديد، وسَمِعَ طقطقة خشب غريبة، اعتقد أنّها الأرضية قال يحي لنفسه وتابع: لكنها إسمنتية لا ينبغي أن تصدر صوتا مثل هذا. نظر يحي لوالدته وهي تضع سبابتها أمام فمها، مشيرة له ألّا يصدر صوتاً. تقدما نحو ضوء ضعيفٍ في نهايةِ الممر، وكل ما يحيط بهم الظلمة، وبدأ الصوت يعلو والطقطقة تصبح أكثر قوة، كان حذراً جداً في سيره، وكانت والدته تسير بخطى واثقة. شعرَ بتغيرٍ في ملامسةِ قدميهِ للأرضيةِ وأصبحتْ أكثرُ ميلاً للطراوةِ وكأنها سجادةٌ صوفيةٌ كثيفةٌ ، ويسيران عليها دون أيّة ضوضاء، لا يسمع سوى صوت الاخشاب، اعتقد يحي أنّه صوت صادر من موقد نار مشتغل، كانت الجدران بارزة بشكل منفر وكانت صماء. للحظات بدا وكأن جسده لا يصدر أيّ صوت ويكاد يسمع دقات قلبه من كثرة الهدوء، وتوقفت والدته بشكل مفاجئ، هكذا دائما يحدثُ شيءً مفاجئٍ يغيرُ مجرى حياتنا يكونُ صادما ويفاجئنا بغتةِ فيتغير كلُ شيءٍ . هل وقوف امرأة يحدث تغييراً؟ هنا في هذه اللحظة توقفت عن السير، وأصبحا على باب قاعة كبيرة، وأشارت إلى يحي أن ينظر وبدون أيّ صوت واضعة إصبعها أمام فمها للمرة الثانية، وأشارت بنفس الإصبع إلى غرفة زجاجية أمامها، كانت شفافة الجدران مضاءة بضوء أخضر خفيف، كانت على شكل مكعب والجدار الواحد منها يقارب سماكة 20 سنتيمتر وكانت تلك الغرفة في قاعة كبيرة لم يتصور يحي أن هذه القاعة موجودة أسفل منزلهم، كانت تشبه إلى حد كبير الحمامات الأثرية ولكنها لا





تحتوي قببا، وعلى محيطها دكة، وفي أمامها على الأرضية مساحة مستطيلة الشكل موازية للبيت الزجاجي، منارة باللون الأزرق بأبعاد تكاد أن تصل إلى المترين طولا وعرضا ما يقارب النصف متر كأنها بلاطة كبيرة، اعترى وجه يحيي الذهول ولكن لم يكن ذلك لرؤية الزجاج المضاء، كان يقف مشدوهًا ينظر لما هو داخل الغرفة الزجاجية الخضراء. كائنات سريالية في هوائها وأخرى تتسلق جدرانها وأخرى تزحف في أرضيتها بأحجام متفاوتة، وجميعهم لديهم صفات قصر القامة والأطراف أيضًا، ولديهم قبعات، أجسادهم ثخينة وأفواههم وأعينهم واسعة كبيرة. كانوا ظرفاء الهيئة ليسوا منفرين، وكل واحد منهم يمتاز على الآخر بشيء وكانما جمعت فيهم عناصر الطبيعة الأربعة وكل واحد امتاز بعنصر، ليسَ لديهمْ ذيلٌ وليسوا بقططٍ وكلابٍ أوْ يقفونَ على قائمتينِ، هناك من كان على الأرض ونبتت عليه براعم شجيرات وعلى رأسه قبعة ورق أخضر، والآخر يقفز من مكان لآخر ويشعل النار، كان نشيطاً وكانت قبعته كلهبِ شعلة، ويلحقه آخر يقذف من فمه الماء كالبخاخ ليطفئ كل الخطوات المشتعلة، وكانت قبعته كقطرة ماء عذبة لا تسقط عن رأسه أبداً، ترشح منها نقط مائية تتطاير خلفه، وجميعهمْ يصدرونَ أصواتُ الطقطقةِ الغريبةِ تلكَ .

وظن يحيي أن كل هذا عبارة عن دمى أو آلات تتحرك من تلقاء نفسها أو أنّها إسقاط هولوجرامي، وهم يدورون في المكان نفسه وفي الحلقة ذاتها.

قالت له بعدما شاهدت الذهول يعلو وجهه: أترى كل هؤلاء الطرابيش؟ -همست بهدوء حذر- جميعهم وقعوا في الخطيئة وكسروا أختامهم.



فتح يحيى عينيه وخطا للوراء مصدوماً، فهو لم يقدر على تحمل فكرة أن كل هؤلاء قد تناولوا ثمار المعرفة قبله وكسروا الختم، وهو لا يعلم أيضًا كم عدد الذين في الخارج ولم يكسروا الختم بعد. قال بصوتٍ يرتجف: ما كل هذا الشر؟ وانفجرت ضحكة منها قوية كهدير الرعد، واضعة



يدها على فمها، سمعتها الطرابيش فبدأت بالهلع وتطايرت القبعات من فوق رؤوسهم والقطرة المائية التي فوق رأس الطربوش سالت في الأرض من رعبه، وبدا الطربوش الناري يقفز هرباً من مائها خائفاً من ألّا يتبخر، مما زاد من قهقهاتِها ضاحكةً عليهم أكثر من السابق فاختبئ بعضهم أسفل طربوشه وكل واحد يرتطم بالآخر وبعدها تمالكت الساحرة نفسها، وصرخت بأعلى صوتها كضابط عسكري يزمجر في وجوه مجنديه: كفى! فتجمدوا بمكانهمْ كأنهمْ صعقوا بتيارٍ كهربائيٍ منْ أسفلَ أقدامهمْ فارتعشوا حتى أعلى قبعاتهمْ .

- قالت بحقد وبصوت أجش: كلكم أغبياء، وقعتم في خطاياكم. تابعت وهي توجه الحديث إلى يحيى: كلُّ واحدُ منهمْ كانَ إما تاجرٌ أوْ موظفٍ أوْ فقيرٍ تعيسٍ يريدُ كسبَ المالِ وجميعهمْ طمعوا بالثمرةِ .



- سألها باستغراب: هل هؤلاء كانوا بشراً؟





- أجابته بصوت عالٍ: هؤلاء ليسوا بشر. وعادت لصوتها الطبيعي وتابعت بهدوء، هؤلاء فقط وعاء، يقومون بتحويل الطاقة بواسطة اختامهم من المياه الموجودة أسفل القبر هذا، مشيرة بيدها للبلاطة الزجاجية المستطيلة الموجودة أمام الغرفة الزجاجية الزرقاء.
- قاطعها سائلاً: قبر من؟ تفاجأت من ذلة لسانها مرة أخرى، وقالت وهي تكبت دموعها: إنّه قبر والدك؟

كانتْ الصدماتُ تنهمرُ على يحيي كزخاتِ المطرِ وهذهِ أثقلها : أولاً حقيقةً أنَ والدتهُ ساحرةً ، وثانيا ثمارِ المعرفةِ وتجارتها بالسحرِ الأسودِ ، ثالثا القبوُ وهذهِ الكائناتُ الملعونةُ ، وأخيرا قبرُ والدهِ القابعِ أسفلَ منزلهِمْ ، وهوَ لمْ يكنْ يعلمُ شيئا منْ كلِ هذا .كانَ كثيرا عليهِ ، ولمْ يعدْ يكترثُ لما قدْ يسمعهُ لاحقا ، أصبحتْ الحقائقُ التي يعلمها سابقا مجردَ أكاذيبَ بدأتْ تنقشعُ عنْ عينيهِ ، وها هيَ رؤيةٌ جديدةٌ تغيرَ نظرتهُ لوالدتهِ والآنِ والدهُ هنا .

سألها عاقداً حاجبيه: كم من المال جمعتِ؟ وإلى متى كنتِ ستخفين هذه الأمور عني؟ بدأت عيناه تذرفان الدمع وشَعَرَ بالخذلانِ، فالشخص الوحيد الذي يثق به في حياته أكثر من أيّ شخص آخر يخفي عنه الكثير. قد تكون قلة معرفتنا بأشياء معينة حبل نجاتنا في الحياة، وقد يكون إخفاء أمور أخرى عنا أكثر صحة لحياتنا. هذا ما ظنته والدته في كثير من الأوقات. قالت بصوت خافت وهادئ واقتربت منه مسدلة عينيها، عندها هدأت الطرابيش وسكنت في مكانها وفتحت عينيها الواسعتين وهي تنظر للساحرة وابنها، وأيضًا ذلك الذي أخفى نفسه تحت قبعته شده فضوله ليرى من صاحبة ذلك الصوت الناعم: إن إخبارك مبكر لأوانه، أنا أردت

إخبارك عندما تبلغ الثامنة عشرة وتصبح راشدا، عندها ستعلم وتستطيع تفهم ذلك، أعلم أنّها قاسية عليك هذه الحقيقة وتصديقها أيضًا ولكن لم يكن الوقت قد حان بعد، اعذرني فكل هذا لصالحنا ولمستقبلك. وضعت يدها على رأسه وأنزلتها على كتفه وهي تمسح له كتفه ببطء، شعرَ يحي بهدوءٍ في نفسهِ وطمأنينةٍ وتابعتْ ، هلْ ترى هذا المنزلِ ؟ إنّه فقط غطاء لكل ما أفعله، إننا نملك المال الآن، ولكن إن أخبرتك سابقاً لأهملت دراستك، ولكني وجدت فيك شغفًا متقدًا، وأعتقد أنّك أهل لأن تتعلم كل شيء.

- سألها: ماذا حصل لأصحاب الطرابيش؟
- أدخلت أصابعها في شعره الأسود الناعم ومشطته ، وقالت: كل شخص أخذ نصيبه، لأنهم من اختاروا ذلك لأنفسهم؟
- قال لها: ما هو هذا الختم الذي تتحدثين عنه؟!
- قالت: يعتمد على كل شخص فأنا أعده وأصنعه تبعاً له، وأشارت إلى الطربوش العائم في الهواء، كان يشوبه الغبار كأنّه سحابة صغيرة من غبار الطلع، وعندها تناثر وانفرد حتى تبعثرت جزيئاته وأصبح كضباب خفيف أصفر وتابعت، هذا تاجر سيارات ونقطة ضعفه السيدات: لقد أمرته ألّا يتقرب من أيّ امرأة غير زوجته - وفي تلك اللحظة تذكرت زوجها وخيانته لها وتابعت وهي تكزّ على أسنانها - لقد خان زوجته وعندها فقط كسر الختم، وهو يعاقب نفسه بفعلته الدنيئة، وبقي التاجر يعاني إلى الآن في دار العجزة فلقد هجرته زوجته وطلبت الطلاق منه وأخذت نصيبها من ثروته وتعويضاً أيضًا، وهو لم يكن ينجب أطفالاً، لذلك بقي وحيداً وأصبح يبدو أكبر من سنه لأنه فقد طاقته وحيويته، وها هي مرتبطة بهذا الطربوش العائم. تابعت وهي تحرك يدها الممدودة في الهواء وبدأت الطرابيش تهرب وتتحرك، وقالت: هل ترى هذا الطربوش الخشبي بقبعته المورقة؟

- أجابها بإيماءةٍ من رأسه. وتابعت ببرود: إنّه جارنا سامر.
- أستاذ الجغرافيا! قالها يحيى مستغرباً.
- أجابت ببرود: نعم، بعدما عرف بأمر الثمرة، طلبها، ولقد كان سكيراً بشكل فظيع ولأني أعرف نقطة ضعفه هذه، طالبته بألا يشرب الكحول.
- قال يحيى: وهو الآن مستلقي على سريره مريضاً هزيلاً في المنزل لا يخرج، يبدو أنّ لكل واحد منهم قصة، ولكن ماذا عني وماذا عن ختمي الذي سأحظى به؟
- التفتت إليه فاغرةً فاها، هل ما زلت مصراً على ذلك؟ ألا ترى ما تفعله هذه الثمار؟ إنّه ليس بالأمر السهل. أترجاك يا بني ألا تفعل ذلك - كانت مدركة أنّه لم يخرج من رحمها قط، ولكنه الطفل الذي ربته منذ أشهره الأولى وأحبته كابنٍ لها- أترجاك.
- قال لها: لا عليك فأنا لا أشرب ولست متزوجا ولا أفعل أيّ شيء يؤذي أحدًا.
- إبتسمت قليلا لعفويته الطفولية، ومن ثم قالت: إن الأمر بعد أن أصرت عليه سأجعله أسهل مما تتوقع، فأنا حريصة على ألّا أخسرك.
- حقاً! هذا يعني أنّه لديك شيء مميزاً لي، أليس كذلك؟
- قالت: سيكون ختمك منك أنت سوف يلتصق بجسدك ولن ينكسر بسهولة؛ ولهذا ستكون بمأمن دائماً ولا أعتقد أن هنالك شيء يستطيع كسره، فقط عليك الحذر من أن تقع عينٌ فضولية عليه.
- قال: حسناً، إن كان الأمر كذلك فلن أجعل أحدًا يراه، فإذًا ما هو؟

- سيكون وشماً، وسوف يوشم تحت إبطك، في هذا المكان لن يستطيع أحد أن يلاحظه بسهولة؛ وأيضا لن يثير فضول أحد أو ينتزعه منك، وطلبت منه أن يخرج معها من القبو.

شغل تفكيره أمر الثمار ونسي أمر قبر والده ولم يثر فضوله، فلطالما لم يكن له ذكرى معه، ولكن لم يعرف ماهي قصته ولماذا هو مدفون هنا.

بدأتْ الطرابيشُ ترتطمُ بالزجاجِ وكأنها تريدُ منهُ أنْ ينقذها منْ هذا السجنِ الزجاجيِ ، طقطقاتْ عاليةً ، فرقعاتٌ ، حتى خرجا وأغلقا البابَ ، ولمْ يعودا يسمعانِ أيُ شيءٍ منْ ذلكَ .

- انتظر قليلاً واجلس على الكرسي.

طلبت منه الساحرة ذلك وغابت قليلاً، فجلس يحيى منتظراً، ومن ثم عادت وفي يدها صندوق صغير كان لونه أرجوانيًا، وضعته على الطاولة، وفتحت الصندوق وأخرجت منه ثمرة متوهجة كانت بحجم حبة الفريز، ولونها من لونه أيضاً. وقالت له: كلها فوراً! فأمسكتها وهو ينظر إليها: افتح فمك! آمرة إياه مرة أخرى. فتحه ودفعتها بفمه فوراً، وشعر بحلاوةِ طعمها، لم يسبق له أن تذوق مثلها في حياتهِ. قالت له بغضبٍ وإلحاحٍ: أسرع! وإذ به من فزعه يبتلعها دفعة واحدة.

أخرجت الساحرة ورقة ورسمت عليها شيئاً فيهِ مثلثات ودوائر وكلمات غريبة بشكل سريع، ووضعتها أمامها على الطاولة، وتأملتها وركزت نظرها عليها لبضع ثوانٍ، وتمتمت بكلمات غريبة، فبدأت الورقة بالارتفاع في الهواء.

نظر يحيى إليها باستغرابٍ تامٍ، وقال معبراً: ياللهول!

طلبت منه الساحرة أن يرفع يده اليمنى للأعلى.حركت الساحرة الورقة العائمة في الهواء باتجاهه واستقرت أسفل عضده ومسحت بيدها في الهواء خلف الورقة بخفةٍ، فشعر يحيى بحرارة، وفي نفس الوقت طلبت منه ألّا يتحرك، وعندها بدأت الرسومات التي كانت على الورقة بالاختفاء تدريجياً، وعندما انتهت من ذلك سقطت الورقة على

الأرض. أيْن الرسم؟! أيْن الرسم؟! قال يحيى وبدا يبحث تحت يده، ولم يرَ شيئا، رفع ثيابه وحرك رأسه يميناً أو يساراً ولم يجد شيئا أيضًا، جلبت الساحرة مرآة صغيرة ووضعتها أمامه، وطلبت منهُ خلع سترته ورفع يده. فعل يحيى ما طلبته ونظر في المرآة وقال بذهولٍ واضحٍ ويشعر بشعور المنتصر: الختم هنا! وكانت ابتسامته عريضة جداً، قفزَ فرحاً. وأما والدته الساحرة الماكرة تبسمت وجلست على كرسيها.

- تذكر جيداً، لا تطلع أحدًا على سرك، ولا تجعل هذا الوشم يصبه عطب.

قالت له برصانة وحزم، كتحذير شديد.

قال يحيى سعيداً ويشعر بنشاط وحيوية لم يشهد لها قط: كيف له أن يعطب! إنّه بأمان هنا تحت إبطي.

سحرها قد نجح وكان ملائماً جداً له، ولم يعد يسأل ولا حتى يكترث من أيْن تأتيه كل هذه الحيوية، لقد كانت تلك الساحرة تخفي قبر زوجها في القبو في تلك القاعة وعليه ختم عظيم، وأسفل القبر يجري نهر ماء جوفي، ولقد صنعت خزان طبيعي ضخم جداً بمساحة بحيرة كبيرة تحت الأرض ولم يكتشفها أحد حتى الآن. كانت المياه مصدر كل السحر، وبواسطة الختم العظيم الموضوع على القبر تجمع كل تلك المياه أسفله، فهو مركز ذلك الخزان الكبير ومنه تستمد الطرابيش طاقتهم، ويقومون بعملهم بتحويل المياه لطاقة. كانت مهمتهم إمداد الساحرة بسحرها الذي يبقيها على شبابها الدائم، وأيضًا إدارة منزلها والمنازل التي كانت تمتلكها والتي لم تفصح عنها لأحد. كان بيتها مُحكما بالتعويذات، ومَحميا من كل الزوايا، فكانت تضع أولهم ختم حول المنزل وكان يحيط بالبناء، وهو عبارة عن دائرة كبيرة في الحديقة المحيطة بالمنزل، وكانَ يُنثر الملح السحري عليها، وأوكلت المهمة لطربوش المنزل، الذي يحرق الأرض ويسحب المياه منها لكيلا ينمو أو يعيش أيّ شيء فيها، فهذه المياه أيضًا متصلة بالتعويذات المسؤولة عن ثمار المعرفة، فأي شيء يمسها سينال منها جرعة من

الطاقة فالنباتات ستنمو بشكل أسرع وستؤثر بكل ما هو حي، وهكذا أمر يثير فضول الكثيرين. أمّا التعويذة الثانية هي لحماية القبو وكل ما يحتويه من الطرابيش والبيت الزجاجي والقبر والقاعة الكبيرة، فهو المدخل لكل ما أخفي عن ناظر الجميع. وتعويذة الغذاء والطاقة ثالثهم التي تمتع بها الطرابيش ليكونوا صلة الوصل بين الأختام جميعهم وتكتمل الحلقة وهم صمام الأمان في حال ورود طاقة زائدة لكيلا تتحول لجسد حامل الثمرة فتؤدي لهلاك حامل الثمرة، ولكن في حال استقبال الطربوش طاقة زائدة فهو مصمم لينقسم بذات نفسه ويوزع الطاقة، ورغم كل ما يتأمن لها، فهي لا تستطيع أن تمنع نفسها من الملذات، ومن تناول الطعام الذي بدونه سيؤذى جهازها الهضمي، فرغم كل شيء، لا يوجد كمال على وجه المعمورة.

بعد مرور سنوات وبعدما أصبح يحيى طالبا جامعيا، بدأ بالتميز وكان يأخذ المركز الأول في كل سنة دراسية، ليس فقط في مدينته وإنّما على مستوى المحافظات كلها، كان محط نظر الجميع من الأساتذة والطلبة، وأيضًا اهتمام الفتيات، فشابٌ في سنّهِ وفي سنته الدراسيةِ الأولى، وبقدرته المذهلة لسوف يلفت الانتباه له، ما جذب أغلبهن هو ذكاءه، رغم ندرة ما يحدثه هذا الانجذاب بين الطرفين الذي يسمى (sapiosexuality)[26]، إلا أنّه حصل فعلاً مع إحداهن وكان انجذابا متبادلا حقاً، كانت متقدة الذكاء ومثقفةً وجميلةً، وملامحها مغرية وجذابة وكاذبة في الآن نفسه، فلقد كانت تعطي مظهر الفتاة اللعوب ولكنها كانت من ذلك النوع من فئران المكاتب. لقد وصلا إلى مرحلة حيث وجد كل منهما الإثارة في محاورة الجانب الثقافي للشخص الآخر، فتعددت حواراتهم كلها حدود الزمالة والصداقة. وكان يحيى آنذاك لا يكتفي بإقامة علاقة غرامية مع فتاة واحدة، لقد كان غروره يقوده لكسب المزيد منهن فثقته بنفسه تعدت كل الحدود، ولكن هذا جعل فتاته المنافس الأكبر وأكثرهن غيرة عليه. في إحدى المرات وجدته في الجامعة مع جمع من

[26] والذي يعني حرفياً الانجذاب الجنسي للأذكياء والعباقرة وفي الأصل تعني كلمة sapiens ذكي أو حكيم.

الفتيات، فما كان منها إلا أن سحبتهُ من يده رغما عنه، فسببت له الإحراج عشرات المرات، وكانت هذه الفتاة تؤلف قصصا من نسج خيالها، عن أحداث حصلت بينها وبين يحي وأخرى لم تحصل على أرض الواقع، كان ذلك بداعي التباهي أمام زميلاتها بعلاقتهما، وهذا ما لم يحتمله يحي لفترة، لكنها بطريقتها كانت تبتدع الأعذار وتلعب دور الضحية، وبعدها لم يعد يبالي بكل ذلك، فكل ما فكر به، هو قضاء وقت ممتع. فلتتخيل ما تريده طالما أنّه لم يحدث شيء من ذلك، هكذا قال يحي لنفسه. وما كان يحمله لقول ذلك هو مخيلتها الخصبة، فعندما يتسامران معاً ويقضي ليلة معها بعد يوم عصيب، كانت هي مهدئه الخاص وعلاجه الذي ينسيه كل ضغوط الحياة، فلقد كانت تأخذه بخيالها وتصوراتها إلى عوالم تبعث الهدوء في نفسه، فلقد كانت بارعة في هذه الأشياء أكثر من طبيب نفسي، فلقد كانت ساحرة من نوع آخر. كانت تسري في عقله قشعريرة وتذهب في طريقها إلى كامل جسده وإلى أطرافه، حتى تسترخي كل عضلات جسده المارة بها، كان كلامها كأناملها الصغيرة الخفيفة، تدلك كل قطعة صغيرة من جسده. وفي إحدى ليالي الشتاء في شقته المستأجرة لحفلاته ونزواته أكثر من أنّها لدراسته، كانا منغمسين بملذاتهم وشربهم وكلام الحب. حاملة بيدها سيجارة ماريجوانا وفي يدها الثانية كأس فودكا مخفف بالمياه الغازية، جالسةً على الأرض ممددةً ساقيها الطويلتين ورأسها مسنداً على السرير، ويحي يضعُ رأسه على نخذها مغلقاً عينيهِ، أخذت رشفة من الكأس ووضعته جانباً، ومن ثم مدت يدها نحو رأس يحي تداعب شعره، كانت تبث هذه المداعبة الطمأنينة في نفسه دائماً، وأخذت سحبة من السيجارة وحبستها في رئتيها قليلاً وأعطت يحي خلال ذلك السيجارة، وبعدها نفثتها الدخان وابتلعت رشفة من الكأس مرة أخرى، وهو أيضا بدوره سحب من السيجارة وأثناء ذلك قالت له وهي

تنظر لسقف الغرفة: ما هو سرك؟ وكان صوتها أكثر عمق لارتخاء حبالها الصوتية وهي تخرج كل ما ابتلعته من دخان، فتصاعد كسحابة كثيفة.
ماذا تقصدين؟ سألها بهدوءٍ شديد فيه بعض اللامبالاة. قالت هي بدورها بصوت خفيض، ونظرها يتجه نحوه بهدوء: عندما أكون معك أفقد السيطرة على نفسي وأنساب معك، وعندما نكون خارجاً أُريد أن أخطفك من الجميع، فلم يحدث ذلك معي سابقاً أبداً، أنا منجذبة لك تماماً، وأنت متقد الذكاء بشكل يعطيك إثارة لا محدودة. قال لها: هل هذا صحيح؟ - قالها ليتأكد مما تقول- هل تعنيه حقاً؟ قالت بعفوية مؤكدة ذلك: نعم. قال لها: لقد تناولت ثمرة المعرفة المسحورة. ضحكت بأعلى صوتها وهزت رأسها للخلف لثوان، وبعدها نظرت إلى عينيه مباشرة مع شعرها المنسدل على جبينه، وقالت مبتسمة برقة وهي تنظر اليه مباشرة: مجنون، أنت تملك خفة دم تزيد رغبتي بك، أحبك! لقد أراد أن يرى ما ستفعله إن سمعت الحقيقة، لطالما كانت الحقيقة أفضل مهرب من قول الأكاذيب. سحب يحيى من السيجارة وأعطاها إياها. أكملت قهقهتها وأخذت سحبة من السيجارة وأكملت كأسها وسكبت المزيد له ولها، وبدأت بالكلام والضحك والغناء والرقص حتى انهارت، تمدد على السرير على ظهره مفردا يديه وصدره العاري، فلفت انتباهها ذلك الوشم أسفل إبطه، فقالت له: متى كنت ستخبرني عن سر هذا الوشم؟ أم أنّك ستخفي ذلك عني؟ قال بصوته المتعب: ما هو؟
في الخارج بدأت السماء تمطر ويزداد صخب سقوطها، ومعه تزداد دقات قلب الفتاة الهائجة التي أصبحت أكثر طيشا مع الكحول، واندفاعها لمعرفة قصة هذا الوشم أصبحت رغبتها متسمة بالجموح وتقودها لفعل ما هو أكثر إثارة معتبرةً إياه مزاحا لذيذاً حميمياً عابراً. أمسكت بالسيجارة المشتعلة ولدغته على الوشم بنارها، فشعر يحيى كتيار كهربائي صعقه، ولكن لخدره من أثر الكحول. لم يدم أكثر من ثانية، وقال بلسانه الثقيل: لا تفعلِي ذلك!

سأحرق وشمك أو أشوهه إن لم تخبرني بقصته: قالتها وهي تضحك مستلذة بما تفعله، فشعورها بالاستمتاع بالسيطرة آنذاك جعلها أكثر قسوة ولامبالاة مع الكحول. ولكن يحيي لم يستجب. قالت بصوت عالٍ وأمسكت يده معتقدةً أنّها تداعبه وتسليه، جلست فوق صدره وأمسكت يده اليمنى بيدها اليسرى ومدتها، والسيجارة بيدها الأخرى، وأمرته أن يتكلم، وبدأت بتقريب السيجارة من الوشم، احترقت بعض الشعيرات الحليقة قليلاً ونفذت رائحتها واختلطت مع روائح التبغ المدخن والمشروب، ضحكت قليلاً وبقيت على هذه الحال، وهو يقول لها: ابتعدي! فلقد بدأ عقله يستعيد وعيه تدريجياً بسبب حرارة السيجارة و ألمه، أحسّت أنّه إن استيقظ الآن واستعاد وعيه سوف تفقد المتعة، وأطفئت تلك السيجارة في إبطه وفوق وشمه تحديداً، كانت رؤيتها للوشم يتغير تمنحها المزيد من الإثارة، ولكن ما فعلته حقيقة أنّها شوهت الختم، والتعويذة قد انكسرت عندها. صرخ يحيي متألماً بأعلى صوته: لا. ورما فتاته من فوقه وهي تضحك، ولكن لثوانٍ فقط، حتى أصبح ألمه يزداد وجسده ينتفض والفتاة ممددة على السرير مرتعبة، تقول له ما بك ما بك؟ وضع يده على رأسه وهو يتخبط في الأرض ولا يستطيع الوقوف، وكانت السماء تزداد أمطارها غزارة وشرع يحيي بالخروج من المنزل بجسده نصف العاري، حاولت هي إيقافه، ولكن قوتها كانت مكبلة بمخاوفها، هرع يحيي للشارع ورجلاه الحافيتان وعضلات جسده البارزة، كان نفوز الطاقة منه يأكله وينخر بعظامه كالمسامير، بدأ بالصراخ بأعلى صوته، وبدا صوته يختنق شيئا فشيئا ويخرج من فمه غبار بشكل سريع كأنها روح قاتمة خرجت من جسده، عبرت الأشجار والأمطار بلمح البصر، وتشنج جسده كلياً وسقط على الأرض مرتعشاً. في تلك اللحظات بدأ بيت والدته يهتز والجدران تتصدع، معتقدة أنّها هزة أرضية ضربت المنطقة، هرعت راكضة للنافذة وبيدها كأس نبيذ، فلم تجد شيئا يتحرك في الخارج، قالت لم يأخذ أحد الثمار مؤخراً، فلماذا أنا

مرتعبة هكذا، صمتت قليلاً وسقط الكأس من يدها على الأرض، وهي تضع كلتا يديها على فمها وعينيها اغرورقت بالدموع خوفاً مما تتوقعه، عندها فقط علمت أن التعويذة الوحيدة والأخيرة كانت ليحيي احتمال انها كُسِرت، وسقطت على ركبتيها. عندها سمعت سَحَر أصوات خرير المياه المتدفق أسفل المنزل؛ فلقد كان أقرب لصوت الغليان وليس الجريان، ونهضت وفُتِحَت كل الشبابيك وفي لحظةٍ خاطفة دخل ذلك الغبار القاتم الذي خرج من فم يحيى وبدأ يتجمع أمامها وهي منهارة نادمة على ما فعلته بابنها، شَكَّل الغبار إعصارًا صغيرًا بدأ يلتف حول نفسه في أرض الغرفة، وفيه ضوء بدأ ينحني بشكل حلزوني داخل الإعصار، كأنها خطوط ضوء بلازما، وتوهج في مركز الإعصار الصغير ضوء ساطع جداً، كان يتشكل أمامها طربوش جديد؛ وانهارت الدموع من مقلتيها، واكتمل تشكل الطربوش وبقي أمامها جامداً. كان لديه فعلاً طربوش، كان جسده بين جسد بشر وخشب كان مزيجاً غريباً. في تلك الأثناء كان يحيى مستلقياً على أرضِ الشارع، وحينها هرع أهل الحي ليتفقدوه وكانت فتاته منهارة، اتصل احد الجيران بالإسعاف ونقلوه للمشفى وصاحبته الفتاة، وأما والدته فنزعت عن رأس ذلك الكائن قبعته (طربوشه) ونظرت بداخلها، تمتمت ببعض الكلمات وبدأت تشاهد أيْن هو صاحب الطربوش[27] ، رأت سحر يحيى من خلال الطربوش مستلقيَ في سيارة الإسعاف ومعه الفتاة وقادها حدسُها على أن لتلك الفتاة علاقة بما حصل، وفي تلك اللحظة عندما أدركت أن للفتاة دور في شقاء ابنها أرادت ان تلقي لعنة تصيب تلك الفتاة فتشل يدها طول العمر. كانت ليلة عصيبة على تلك الساحرة التي لم تكتفِ فقط بشقاء الكثير من الطامعين ثمار المعرفة تلك وإنّما أيضًا بمعاناة ابنها، كان أول من قام بتجربة تلك الثمار هو معلمها الذي ساعدها في تجاربها وبحثها الدؤوب عن الحصول على المعرفة والحكمة، ولقد كان اختياره أن يجربها على نفسه أمراً صعباً ولقد كان يحتفظ بسرهما

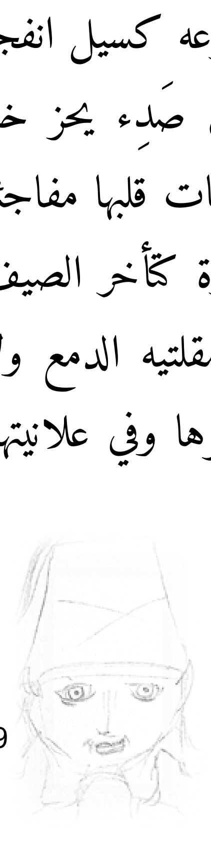
[27] هذا الكائن يستطيع التخاطر مع صاحبه من خلال تعويذة الطاقة تلك.

عن جميع الناس، في ذلك اليوم الذي توصلوا به إلى انتاج أول ثمرة، خلقت في داخل المعلم رغبة كبيرة في الاستيلاء وتجربة أول ثمرة قبل الجميع، كان يريدها لنفسه، ولقد ارتعبت لنظراته الساحرة و ترجته أن يتمهل أو يجربها على أحد آخر قبله، قال لها إن فعلت ذلك سيتحكم بنا قبل أن نستطيع السيطرة عليه، فنحن فقط من لديه القدرة على التحكم بهذا السحر ونحن فقط من نصنع الصفقات ولهذا لدينا الحق الكامل بالحصول على السيطرة الكاملة على هذه الثمار ولسوف ننشئ جيشنا الخاص ولسوف ننشئ تجارتنا وسنبقى شباباً، عندما سمعت تغير لهجته المعهودة بالاتزان والحكمة، علمت أنّها لن تستطع إيقافه، فتناول أول ثمرة، وكان يعلم المعلم أن هذه الثمرة أقواها وأكثرها حكمة، لم يكن يتحكم بها أيّة شروط ولم تكن مختومة بسحر ما أو تعويذة قد تنكسر لإخلاله بشرطها، لذلك كان مسيطراً كلياً. طور السحر وهو من ساعدها في طريقة وضع تعويذات الطاقة وحمايتها، وصلا لذروة عملهما وأنتجا أنواعًا كثيرة من الثمار، واحتفظت الساحرة بالنوع الأول الذي لا يعتمد على شرط مثل ثمرة الساحر، بعد حين اشتدت على المعلم الحالة ووجد نفسه في قالب مغلق لا يجد أحدًا ينافسه فيما هو فيه، قرر الانتحار، قرر أن ينهي كل شيء، وأن تدفنه في أحد الأقبية المخفية لسنوات عن أعين الكثيرين في المدينة، معتقداً من نفسه أنّه شخص ذو أهمية وسوف يغير ما فعله مجرى وتاريخ البشر، لقد بالغ في تقدير نفسه كثيرًا، وهذا ما جعل الساحرة تضع شروطاً لسحرها لكيلا تحدث صراعات ويتنافس الجميع على سلطة ويجب أن يكونوا في القوة نفسها والذكاء نفسه.



أخرجت سحر ابنها من المشفى خلال أيام، بعدما أصبحت حالته مستقرة، قال لها الأطباء أن وزنه نقص بشكل مفاجئ، ولا نعلم السبب وهو يعاني من ضعف في الكلام وفي حركة يديه ورجليه،

وأظهرت تأثرها عند سماع ذلك، وكأنها لا تعلم ما حصل، أخذت ابنها معها. وفور دخوله بناء المنزل تغير جسده واستعاد نشاطه، وعندها طربوش سقط طربوشه عليه، ليس لاتساعها وإنّما حجمه الذي أصبح صغيراً، عند عودة يحيى للمنزل، فهو مصنوع من يحيى ولا تطبق تلك اللعنة إلا عندما يكون يحيى خارج المنزل، أمّا داخل المنزل يعيش طربوش بقوته الطبيعية بعدما استعاد يحيى عافيته وجسده وقوته الكاملة. انفجر يحيى غاضباً يشتم ويقذف كل شيء يصادفه بوجهه، وتحول كل ما يحيط به إلى ألوان قاتمة متشحة بالسواد، والجدران أصبحت بلونها الرمادي أكثر قرباً للون الأسود، ارتفع ظل خلف يحيى وشعرت سحر كأنّما بيحيى يفجر غضبه دون أن يستطيع السيطرة عليه، فبدأت الرياح تعصف في حديقة المنزل، وحُجِبَ ضوء النهار عن النوافذ، ويردد هذه الكلمات وهو يكز ويطبق على أسنانه: كل هذا بسببها، لقد كسرت الختم وأحرقت الوشم. كان ظله الأكثر عتمة من أيّ شيء آخر يرسم خلفه تلك اللحظات التي حرقت بها فتاته الوشم، وهو يستغيث من الألم، قال وهو يضع كلتا يديه على وجهه ورأسه يرتد للخلف: لقد دمرني جنونها. وعاد يصبَّ جام غضبه على أثاث المنزل يكسر ويخرب، ووالدته تراقبه وتقول بداخلها فليفعل ما يحلو له وليفرغ ما بداخله، فهو أفضل سبيل ليتخلص من غضبه، وعندها جلس يحيى على الطاولة أمام والدته، واضعاً كلتا يديه أمام وجهه وبدأ بالبكاء، انهمرت دموعه كسيل انفجر من ينبوعِ العناء، كان صوته ونحيبه يقطع قلب والدته كسكين صَدِء يحز خبز الفقراء، قاسٍ كقلب والدته في استغلال الضعفاء، راود سحر خفقات قلبها مفاجئة مباغتة، وترنوا إلى والدها ممسحةً على رأسه لتواسيه، كانت متأخرة كتأخر الصيف عن الشتاء، كانت عيناه كغيمات ممطرة ويدها لم تجفف من مقلتيه الدمع ولا الحزن ولم يكن في مقدورها لا الكلام ولا البكاء، صمتت في سرها وفي علانيتها. واسته وحضنته، عندها تقلص ظله الهائم في الغرفة وهدأت



العاصفة في الحديقة وظهر النور في الغرفة وأصبحت الجدران أكثر بياضًا من المعهود، قالت كفى وألف آه باكيتاً.
ما بعد هذا إلا الشقاء، كانت مصيدة لكن ما وقع بها هو الطيف وانهزم بها العفيف، كانت حياته مزهرة نجاحاً، ولكن سهوة أطاحت بحكم العقلاء، في هذه الصفقات مع الساحرات لا عاقل ولا جاهل منتصر فالكل سواء، حاولت أن تصنع له ختماً يخفى عن كل من في رأسه عينان مبصرتان، لكن الحب قد اقتحم كل الأبواب والجموح والتعطش للمرح كسر كل الأقفال ليدخل، كإعصار يضرب جدران الهدوء، يسحب جسد ابنها كآخر ورقة خريف تسقط و تمايل مع الرياح.
بعدما هدأ يحيى طلبت منه والدته أن ينام؛ بعد سنوات وسنوات من العمل المرهق، بسبب تلك اللعنة، يستيقظ يحيى صباحاً منهكاً، لا يشعر بجوع ولا يتلذذ بطعام، فور خروجه تعرج رجليه ويحمل قداحاته للبيع، كأنّه سقط من الجحيم على الأرض ليكمل عذابه فيها. في تلك السنوات لم تكبح غضبها والدته، وشكلت لنفسها أتباع وعملاء، اشتروا الثمار، صاروا طرابيش، كانت أختامهم أرق من الورق تحت حبات المطر، يخدشون بسرعة؛ ينكسرون عند أول كذبة، أول فاحشة، أول خطيئة، كانت قاسية، ومع ازدياد همجيتها ازدهرت تجارتها وازداد عدد أتباعها، وازداد رصيدها في البنوك وفي العقارات وشراء البيوت في المدينة، وكانت تخبئ وتزيد من عدد الطرابيش، ولحق بهذا الازدياد شح بالمياه وعوز وفقر يضرب المنطقة، لا أساطير أفاميا ظهرت ولا أساطير الينابيع بقيت.

الفصل السابع
شجرة الزيتون تكشف عن تاريخ طويل

كانت الشجرة تتوهج وتصدر صوت طقطقة عالية، وبدأت بالتموج أمامه، نظر هاني للشجرة ولم يشعر بأيّة رياح تلامس وجهه أو أيّ سبب يدعوها لكي تتحرك، وبدأت الشجرة بالحديث معه، وكانت تتكلم بكلام مبهم المعالم عن قصة ما، عن ماء، عن البائع، عن روح الطبيعة ودموعها، عن رموز، عن حروبٍ، لم يستطِع التركيز بكلامها، فقط انتبه إلى أن هذا شيء غريب، بأن هذه الشجرة بدأت بالكلام معه، وكان المنطق يستيقظ تدريجياً في عقله الواعي، وحلمه بدأ بالانهيار بشكل متسارع بازدياد، حتى استيقظ وأدرك أن الحلم عن الشجرة قد راوده ثانية. حاول جاهداً أن يفتح عينيه ليشاهد ضوء النهار من حوله، وكانت النافذة شبه مفتوحة، نهض من سريره وتوجه نحوها، فتح النافذة ووقف أمامها يتأمل الحي، ويستمع لليمامة التي اعتاد على مجيئها لتقف على أغصان الشجرة، وكان العصفور البلدي يغرد بصوته المنعش. مرت إحدى السيارات لتطغى بصوتها على ذلك الهدوء، وتبعتها دراجة نارية، فهذه هي ضوضاء الصباح المعتادة، كانت الشمس لطيفة عند الصباح تعطي بأشعتها طاقة كبيرة وشغفًا للمضي في نشاط، قال بصوت خفيض: هذا اليوم جميل، أحبّ أن أستيقظ بهدوء ولكن نشاط الناس والعالم هنا فيه أنس ولطائف. فرد هاني يديه وهو يمددهما على أكبر اتساعٍ ممكن أمام النافذة، وبدأ يسمع طقطقة بالشجرة ترتفع وترتفع تدريجياً، وكان الصوت يطغى على كل الأصوات الأخرى، ولم يعد يقدر يميز الأصوات لعشر ثوان متواصلة وكأنما هناك ضغط هواء شديد في أذنيه، وفي لحظةٍ واحدةٍ أزيلَ الضغطُ وبدتْ الطقطقةُ لهُ أكثرَ هدوءاً ووضوحاً

وكانتْ تبدو لهاني ككلامٍ متقطعٍ، كحفيف الشجر وصوت عميق من مكان بعيد، أو صوت مدخن برئتي حصان، التقط هاني بعض الكلمات. اندمج هاني بصوت الشجرة ولم يعد ينتبه لأصوات ضجيج الحي المعتادة، كان هاني يسمع صوت حفيف الشجرة وتلك الطقطقة بتناغم ومنها صُنِع كَلمات، وكان يفهم ما يُقال، وهنا في الواقع لم يستغرب أبداً ما يحصل معه، بعكس ما حدث في الحلم.

بصوتها المخملي العميق جداً، قالت ببطءٍ شديد: خذوا أغصاني كلها! وتساءَل هاني لمن يُقال هذا الكلام ومن أيْن يصدر؟ عندها بدأ يتضح له الأمر أكثر، عندما بدأ يسمع محادثة تدور حوله، وأحدهم يقول: سوف أبني عشاً هنا على أغصان الشجرة. ما رأيك؟ فترد عليه كأنّه صوت امرأة وكان صوتها مألوفاً حقاً: الإنسان سوف يخرب لك العش. التفت هاني لمصدر الصوت فوجد العصفور واليمامة يتحدثان. قال العصفور مستطرداً: سأخبئه جيداً وسوف أبنيه عالياً. قالت اليمامة:الأطفال يلعبونَ كرةُ القدمِ في الحيِ ، وسوفَ يضربونَ منزلكَ وتندمَ على ما فعلتهُ ، فهذا المكانُ خطر ، أنصحكُ أنَّ تبنيهُ في أشجارٍ أخرى كأشجارِ السروْ ، فهيَ عاليةٌ كفايةٌ وكثيفةٌ أغصانها ، ومخضرةٌ طولَ السنةِ وتستطيعُ أنْ تجدَ جيرانا عصافيرَ كثرَ أيضا.

- وأين تمكثين أنت؟ سألها العصفور.
- في كل مكان، الأبنية القديمة أو أسطح الأبنية، أو الأقبية.

لم يلفت انتباه هاني هذا الحديث، كان يفهم ما الذي تقوله الطيور والشجر، ولم يستغرب الأمر وشعر بأنّه شيء طبيعي تماماً على غير عادته. قال محادثاً الشجرة:

- الطقس جميل اليوم لكن تشوبه بعض النزاعات.

- فأجابته الشجرة: نعم الطقس جميل.
- تابع كلامه مضيفاً: أتوقع أن يصبح حاراً جداً هذا اليوم، في بداية اليوم شمس تنذر بحرارة شديدة في أوقات الظهيرة.

- بقيت الشجرة صامته لبرهة، وبعدها سمع منها همهمة كخفيفٍ لطيفٍ وقالت له بصوت واضح تسأله مستغربة: أنت تستطيع الكلام إذًا؟!
- أجابها: أعتقد أن الأمر يجري بسلاسة، فأنا لا أواجه أيّة مشكلة.
- قالت الشجرة: حاولت التواصل معك مراراً، وأيضًا صديقاتي في كثير من المرات.
- أيّةُ صديقات؟ كيف ذلك؟! سألها مستغرباً وتابع: أنا لم ألاحظ ذلك وهل عندك صديقات؟ من أيّ نوع هن؟
- لقد سألتني الكثير من الأسئلة، الأشجار جميعاً تستطيع الكلام مع بعضها البعض، فنحنُ مثلكم ولكنكم أنتم أيها البشر تعتقدون أننا لا نملك عائلات وليس لدينا أطفال ونحن عكس ما تتوقعون.

كانت ردود هاني وكأنها تكرارٌ لما تقوله الشجرة، ولكن باستغراب وبطريقة تجعلها أسئلة:

- قولِي لي، ألديك أم وأب؟ وهل لديك أطفال؟

علمت الشجرة أنّه سوف يعيد مساءلتها، فقاطعته قائلة:

- إن الأمر مختلف عمّا لديكم أنتم، ولكنه لا يكاد يكون كذلك، بل بطريقة أخرى، فأنا لدي أم ولكن هنالك أشجار أخرى لديها طريقتها في العيش، فنحن كما تعلم نستطيع أن نتكاثر بطرق...

عندها قاطعها وشعر أنّها سوف تسرد عليه شيئاً من علم الاحياء أو محاضرة علمية وخصوصا أن دراسته كانت أدبية في الثانوية، فشعر بملل وخصوصاً بعدما سمع طريقتها البطيئة في التحدث. فقال:

- كيف حاولتِ التواصل معي، فأنا لم أفهم ما قلته سابقا؟

- علمت أنّها تشعبت بالأمر وقالت له: أجل نحن نتواصل فيما بيننا بالغازات، وأحيانا بواسطة الفطور في الأرض، وهذا ما حدث معك.

كاد أن يضحك على قولها، بواسطة الغازات وحاول كتم ضحكته، ولكن عندما علم أنّها وسيلة التواصل معه أيضًا انتابه الغضب قليلاً وقال لها مسائلاً مشمئزا:

- تواصلتم معي بالغازاتِ إذاً!

لم تفهم جيداً سبب انزعاجه، فمصطلح الغازات في ثقافة الشجر مختلف عما عنه في مجتمع البشر، فقالت:

- إننا أرسلنا لك بعضاً من الإشارات في نومك، وأردنا أن نلفت انتباهك إلى شجرة منا، ولكني لا أدري إن نجح الأمر، أم لا.
- سألها هاني هل تقصدين الأحلام؟
- ما هي الاحلام؟ سألت الشجرة بدورها.
- قال هاني: لا عليك. لقد راودني هذا مرتين، وفي نفس الوقت أشاهد نفس الشجرة، واليوم صباحاً استيقظت وأنا أتذكر شيئًا قليلاً من الحلم، كانت الأشياء مبهمة كما هو الحال في كل الأحلام التي أستيقظ منها على ضجيج أو بسبب استيقاظ غير تلقائي من نفسي، كانت الشجرة تتكلم عن حرب وعن روح الطبيعة ودموعها، فأنا لست واثقاً إن كان هذا الكلام دقيقاً لأنني لا أستطيع أن أجزم أنني أتذكر ماهية ذلك الحلم، تابع وقال بطريقة مديح للشجرة وكأنها فعلت أمرا في غاية الذكاء: كنتِ أنت السبب اذاً؟!

- استغربت الشجرة من آخر سؤال له، وكيف غير من حالته النفسية للإعجاب به بهذه السرعة وأصبح بغاية اللطف وقالت: تلك الإشارات في نومك كما تدعوها (الأحلام) كان لها هدف حيث أن تلك الشجرة مفتاحاً للباب. وتابعت الشجرة قولها، فنحن نريد أن نلفت نظرك إليه.
- باب؟! سأل هاني مرة أخرى باستغراب وتابع: أيّ باب؟!

- أجابته مصححةً ما قالته، نحن نريد مفاتحتك بأمر معاناتنا، وأنت بيديك المفتاح. أقصد الحل.
- مازلت لا أفهم شيئاً، ولا إلى ماذا ترمين، مفتاح وباب وشجرة تتكلم، وأيضا قد وصلت إلى أحلامي والآن تقولين انني سوف أجد حلًا لمعاناتكم! هل فاتني شيء؟

كان هاني ينهي قوله دائماً بسؤال، فلقد كانت الأفكار تطفوا في عقل هاني، ويحاول أن يقوم بإيجاد صلة أو رابط بينها جميعها، ولقد زادت الشجرة من الأمر تعقيدا. وطالبها قائلاً بعد سؤاله: أخبريني بالقصة كاملة.

- قالت بتمهل: أرجو منك أولاً ألّا تقاطعني.

التفت هاني حوله ولاحظ بأن الحركة في الحي تبدو شبه معدومة، وكأنما السيارات واقفة في مكانها. ولكنه لم يأبه بذلك الأمر وأجابها بالموافقة: كُلِي آذانٍ صاغيةٍ.

- بدأت كلامها بحزن وأسى وهي تقص عليه آلامها ومعاناتها قائلة: نحن مجتمع الأشجار ظُلمنا على مر العصور، فلقد كانت حياتنا البطيئة عائقاً للدفاع عن أنفسنا ولكن حاولنا أن نقاوم.

كان هاني يفكر ويقول لنفسه وهو يستمع لكلامها البطيء: يا لحديثها المضجر، عن أيّ معاناة تتكلم ونحن من زرعها هنا، فهي لم تتجاوز الثالثة عشر من عمرها.

- قالت له أنا أعلم أنّك تتساءل الآن في أعماقك، كيف لي أن أقول على مر العصور ومن أيْن تأتي هذه الحكمة -مغترة بنفسها- قالت متابعةً: نحن نرث المعرفة وتاريخ أجدادنا من أمهاتنا، فقبل أن ننفصل عنهن يضعن كل ذلك فينا ويرحلن عن عالمنا، لا أدري تحديداً من الذي يرحل نحن أم هم، فنحن منهم وهم يعلموننا كل شيء، فهم الأصل دائماً.

شاهدت حاجبا هاني يرتفعان، فقرأت ملامح وجهه وكانت تدل على الاستغراب.

- حسناً حسناً، قالت وتابعت: لن أزيد الأمر غرابة، لذلك سوف أسرد عليك تاريخنا، وسوف تدرك الآن ما كنت أتحدث عنه. تابعت: في عام **720** قبل الميلاد كان هناك شخص يسمى شاروكين الآشوري، فلقد استقر الآشوريين في حماة وقطعونا ودمروا البساتين في المدينة. وبعدها بحوالي تسعمائة عام جاء فوكاس البيزنطي، وبعدها انهار حكمهم على يد الفرس فدمر الفرس الأماكن المقدسة في المدينة وأحرقوها، وكأن اسمه -توقفت قليلاً عن الكلام وهمهمت كأنها استيقظت لتوها من كابوس مرعب وتلفظت باسمه- (كسرى أيروز)، إن اسمه يجعل أوراقي تنتصب وتكاد تسقط، لقد كان سفاحاً، لقد قام بقطع أعداد كبيرة منا، ولم يتوقف عند ذلك فلقد نهبوا البشر وأخذوا الفضة والذهب وهرب القاطنين في هذه المدينة (سلمية) من بطشهم وفقرهم، وبمرور الأعوام عشنا وحيدين على هذه المياه التي كانت غزيرة سابقا، و باتحادنا سوياً ووقوفنا مع بعضنا خلال تلك الأعوام الطويلة، أعطينا بعضنا البعض القوة، والشعور بالتقارب أكثر فيما بيننا، وكونّا مجتمعاً شجرياً جميلا مفعما بالخضرة والهدوء والهناء. مرت مئات السنين حتى خمسينيات القرن الماضي، فقاموا بزراعة القطن تقليداً للمنطقة المحيطة لذلك النهر العظيم شمال البلاد، وعندها كان القطن يستنفذ المياه بشكل كبير، كان يوجد حوالي ستة آلاف بئر نعتاش عليهم، ومعظمهم نفق وجف. لقد كانوا في تلك الفترة، وأنا أتكلم الآن عنكم أنتم البشر، تروجون لمحركات متوحشة تلك التي تسرق المياه وتقوم بشفطها بواسطة أذرعها القاتلة، كانت تلك الوحوش بريطانية كما أذكر، وكان يوجد حوالي ثلاثة عشر ألفا منهم، لقد كانوا جيشا من العلق يمتصون مياهنا، حتى جفت المنابع والأقنية الرومانية وبعدها أغلب آبار المياه. ولأجل ذلك قرر البشر للمرة الثانية أن يهجروا المنطقة، وكان تعدادهم حوالي **20000** وهذا ما أدى إلى حدوث كارثة بعد عشر سنوات، كانت مصيبة على حقول الكرم

والأشجار منا، التي كنتم تزرعونها على مسار الأقنية الرومانية التي وصل عددها حوالي **300** قناة، ولكن التاريخ يعيد نفسه وزراعة الزيتون للمنطقة من العصر السلوقي.

قال هاني وهو مندمج في كلامها بصوت خافت:

- إذًا القطن هو عدوكم الأكبر!

- قالت: أنا لم أنهِ حديثي بعد، ومع ذلك كلامك صحيح لقد جفف مياهنا وخسرت المدينة الكثير، وأيضا انحسر مجتمع الأشجار، ولذلك كل شجرة كانت تقضي نحبها كانت ترسل لأبنائها حكاياتها وتاريخها وتاريخ الذين قبلها، ولذلك يعاد علينا مرات ومرات من آلاف الأشجار، حتى حفظناه عن ظهر قلب. متابعة: بعد مرور **40** سنة (أي الآن)، عادوا لزراعتنا نحن شجر الزيتون، ولكن بعد كل هذا جاءت ساحرة.... وسكتت قليلاً الشجرة.
- انتظر هاني قليلاً ثم قال: وهل يوجد ساحرات في عصرنا هذا؟!
- قالت له بغضب: نعم يوجد واحدة، لقد قامت بسحر أسود، إن لم تقف عند حدها سوف تنهار المدينة.
- سألها: ما ذلك السحر الذي قامت فيه؟ وما علاقته بالمدينة؟
- أجابته مبدية إعجابها باهتمامه وبسؤاله قائلةً: سؤال جيد، من هنا تبدأ القصة.
- قال في نفسه "كل هذا ولم تبدأ القصة بعد؟ إن الحديث مع الأشجار لأمر ممل حقاً " ومن ثم قال للشجرة: حسناً أكملي، ساحرة وشجرة وتاريخ، أكاد لا أفهم.
- قالت الشجرة: يالكم من كائنات غريبة لا تمتلكون الصبر. إن كنت تريد أن تنال الحكمة عليك أن تمتلك الصبر والجلد، وإن أردت أن

تحصل على ثمار فعليك أن تزرع أولاً وتصبر لسنوات لتحصد محصولك الأول.

- تنهد بعمق شديد وقال لها: حسناً معك حق نحن عديمي الصبر، وكفاك ثرثرة ولا تتهربي من إجاباتي، أكاد أشك في تفكيرك.
- اغتاظت الشجرة من رده القاسي الفج، فعصفت ريح شديدة بقوة ونفضت عنها أوراقًا صغيرة صفعت بها شِباك النافذة الحديدي، وكادت أن تعبر ثقوب الشبكة الصغيرة، تكاثفت الأوراق حتى حجبت النور عن الغرفة وكانت مظلمة لمدة جعلت هاني يقشعر بدنه، وفي لحظة واحدة سقطت كل الأوراق سوياً وانبثق النور في وجهه كانفجار الألعاب النارية في ليلة رأس السنة، حاول التراجع للوراء بعفوية غريزة الدفاع وشعر بتباطؤ شديد في استجابة حركة عضلاته.
- وقالت له الشجرة بصوتها العميق ومزاجها الحاد: عليك أن تصغي فقط ولا تقاطعني.
- قال لها بصوتٍ يرتجف: أرجو المعذرة، لم أقصد ذلك.
- أجابته: كفاكَ أعذارًا، إن لم تستمع جيداً سوف تتوه في بحثك عن أمر الفتى البائع.
- سألها وعاد لعادته السيئة في المقاطعة: هل تعرفين الفتى البائع؟
- أجابته بحنق: عليك أن تشكر أن بيننا شبك معدني، لولاه لكنت ملأت فمك بالأوراق اليابسة لكي تتوقف عن الكلام. وتابعت: تلك الشجرة التي تراها في أحلامك هي من وحينا لك، بأن تراها وأن تستدل عليها، وعليك الآن أن تتكلم وتقول لي ماذا رأيت في حلمك الأول؟
- أخبرها عن الحلم الأول الذي راوده عن الشجرة وعن المياه المتدفقة في الشوارع.

- تفسير هذا الحلم، قالت الشجرة: تدفق المياه كالسواقي في شوارع الحي، يعني وكما يقال كشف سر ما في ذلك المكان، فاهتمامك بمعرفة أمر الفتى "يحيى" - عندها اندهش هاني لمعرفتها باسم يحيى وتغيرت ملامحه- تابعت الشجرة: أن الشجرة التي بالقرب من منزل يحيى، هي تعلم أشياء لا أحد يعرفها من سكان الحي ولا المدينة، سِوى يحيى ووالدته الساحرة.

صدم هاني عند سماعه ذلك، وطلبت محذرة إياه ألّا يعيدَ كلامها كما يفعل دائماً، فقالت:

- لا تمتم، قالت الشجرة وتابعت: الشجرة الكلام بحماس أكبر: تلك العجوز هي التي سرقت منا مياه المدينة وتستغلها لمصلحتها، وحدثته عن ثمار المعرفة وعن أختام الساحرة والطرابيش وأعوانها وتجارتها وعقاراتها وكيف وقع ابنها بالسحر، بإيجاز كبير.

أثقلت رأس هاني بكل ما تعرفه وأشعره هذا بدوار، كانت هذه المعلومات صادمة ولا يستطيع تصور كل هذه الأمور معاً في آن واحد.

شعر بالخوف قليلاً وبشفقة كبيرة على حال يحيى، وكأنه مشارك في خضم كل هذه الأمور، علم أنه إن أقدم على خطوات أخرى سيتورط بشؤون الساحرة.

قال هاني: أنا طالب جامعي وجاهلٌ تماماً بالسحر، وهذه الطلاسم والرموز قد كبلت يدي، كنت أُريد مساعدة يحيي مادياً إن أمكنني ذلك، ولكن الآن قد تغير كل شيء.

قالت بتحفيز: إنّك لن تنقذ يحيى فقط، إن استطعت كسر سحر العجوز تلك، ستنقذ المدينة بأكملها وريفها أيضًا، فلسوف تعود المياه لمجاريها بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. إن سجينها ليس المياه فقط؛ بل كل أهالي المنطقة، نحن محكومون بطمع، ومهددين بالانقراض من جراء الجشع.

- كيف! كيف ذلك؟ سأل هاني.

- لدينا خطة، وما عليك سوى التنفيذ، وأنت شخص مناسب لذلك، ويبدو أنّك شخص مؤهل مسبقا لذلك. أجابت الشجرة وتسأله متابعة، مغيرة من لهجتها الحادة: هل تواصلت مع غير نوعك سابقاً؟

حاول التذكر، وبدت له الذكريات ضبابية جداً في مخيلته، فيقول:

- في صغري حاولت التواصل مع القطط، واعتقدت مراراً أن لدي القدرة على العوم في الهواء أيضًا، و حاولت مراراً أن أطور نفسي في الأمرين معاً، ولكنني اعتبرت ذلك أمراً طبيعياً حتى أهملته، - كان عندها يفكر بما يقوله ويتساءل أيضًا في عقله هل أنا أخلط بين أحلامي والواقع وبعدها تذكر أنّه شعر بهذه الأمور بشكل محسوس بالواقع- ولكنني أهملته لسنوات ونسيت الأمر حقاً، فلقد شغلتني المدرسة والدراسة وأصدقائي وألعاب الطفولة طيلة تلك السنوات، والآن أتحدث مع شجرة لأول مرة.

قال هاني جملته الأخيرة الموجهة للشجرة بتأفف، وغير قادر أيضًا على تصديق نفسه متفاجئا من ردة فعل جسده في إطلاق هذه العبارة، بفرد يديه في الهواء متباعدتين نحو الأعلى، وصوته المتزحلق معهما كنغمة تتعالى بالطبقات الصوتية.

تخبره الشجرة ويبدو عليها التعب: عليّ العودة لصناعة الأكسجين، أنا أصبحت متعبة. وتغط في نوم عميق وتذهب ملامحها ولا يسمعُ طقطقة ولا حفيف. ويبدأ تغير ضغط الهواء على أذني هاني بشكل مفاجئ، ويعودُ لسماعه صوت زقزقة العصافير واليمامة، والسيارات تعاود الحركة وحاملة معها أصوات ضجيجها. يرتدُ رأسه للخلف وينظر إلى الشجرة مبتعدا عن النافذة، ويحدق بها متسمراً، وعندها ينفض رأسه المثقل بكل ذلك الحديث، ويسأل نفسه الآن بعدما عاد المنطق لتفكيره: هل هذا حقيقي؟! هل تحدثت لتوي مع شجرة وسمعت جدالاً بين عصفور ويمامة؟ حاول أن يقول شيئا ولكنه فقد قدرته على التعبير في هذه اللحظة. فأطلق زفيرا طويلا ومضى

نحو الحَمام، شعر أن رجليه غير متعبتين من الوقوف، كان شعوره أن ذلك الوقت كان عبارة عن ثوان معدودات، وكأنما الزمن قد توقف، ولكنه يتذكر كل شيء. فيسأل نفسه: هل استطاعت عصبونات ذاكرتي أن تحتفظ بكل ذلك الحديث؟! كاد أن يقفز ويغوص في دوامة من الأحاديث مع نفسه عن كيفية تخزين الذاكرة في العقل الإنساني خلال إبطاء الزمن، وهل المشابك العصبونية للذاكرة تستطيع أن تتسارع مع ذلك الزمن، و هل تحرك لساني ليتحدث بسرعة خارقة أيضاً؟

ولكن قراره بالاستحمام وصناعة فطوره، كان أقوى وأكبر من أفكاره تلك.

بعدما أكمل استحمامه خرج هاني من الحمام بانتعاش وحيوية، اعتاد دائماً أن يخرج منه بكامل لباسه، أخذ منشفة أخرى لينشف بها رأسه وبعد انتهائه منها فردها على ظهر كرسيه، وانتقل بخفة إلى المطبخ ، استمتع هاني برائحة عطر الشامبو اللطيفة المنبعثة من شعره أثناء سيره، وتمنى لو أنّه في بيت خاص به، بصحبة إحدى الفتيات لكي يستنفذ شبابه معها ولا يهدر كل هذا الجمال لنفسه، أراد مشاركة نفسه مع من يحب. قال لنفسه مبتسماً ممازحاً نفسه (كم أنا شخص كريم) ومنْ ثمَ عادَ ضميرهُ ليبعدهُ عنْ الأفكارِ والشهواتِ ليقولَ: استغفر الله. ضحك بصمت على أفكاره، وهو يعد فطوره السوري التقليدي، المكدوس والشاي وقليلاً من الزيتون، وطبعًا مع الخبز المشهور في بلاد الشام. مع كل زيتونة يتناولها تزيدُ رغبتهُ بشرب كمية كبيرة من شراب ساخن ثقيل يريح له معدته، لذلك قرر بعد انتهاء فطوره أن يعد كأسا آخر من الشاي الثقيل. وضع الإبريق على الغاز وسخن به الماء المُحلى بالسكر، وبعد غليانه أضاف الشاي بشكل مبالغ به، واهتاج سطح الماء عند ملامسة أوراق الشاي اليابسة له، فاتجه للأعلى كأنّه يفترسها بفقاعاته المتفجرة، رفع الإبريق لخفض حرارته، اشتم رائحة الشاي المغلي المتغلغل في الهواء والبخار المتصاعد، التي كانت تحمل دلالة على مرارتها حتى قبل أن يتذوقها، فبعد سنوات من صنع الشاي أصبحت حاسة الشم

لديه تميز مما مصنوع الشاي، هل فيه سكر كثير أم شاي أكثر أم هو خفيف. لقد كانت تلك الرغوة السميكة، خير دليل على أن الشاي ناضج وسيتخمر سريعاً، أغلق الإبريق وجلب صينية ووضع كأسا زجاجيا مع صحنه فوقها، واضعاً قاعدة الإبريق لكيلا تتأثر الصينية بحرارته ووضع الإبريق فوقها وذهب متجهاً إلى غرفته، هذه هي عادته يحب أن يصنع كل شيء بدقة فهو محكوم بقيود الاتيكيت، وكأنه واجب نفسي آخر.

اتجه نحو غرفته وجلس على طاولته وعاد للتأمل المعتاد في الشجرة، صبَّ الشاي ورفع الكأس الساخن بأطراف أصابعه وارتشف أول رشفة، وهو يبتلع الشاي شعر بضغط هواء شديد على طبلتي أذنيه وبعدها شَّرَقَ بالشاي، وأثناء ذلك سمع صوتاً عميقاً يقول له: هل أنت مستعدٌ الآن؟!

وعلى إثر تلك الشَّرَقَة غص بالشاي وبعدها كح كحاً شديداً، وغرغرت عيناه بالدمع، فوضع الكأس على الطاولة وأسند يديه على الكرسي وهو ينظرُ للشجرة بعينين مغشيتين بالدمع من أثر ذلك، وقال لها بصوتٍ مخنوقٍ: كدتِ تقضين عليّ.

فسمعها تضحك بصوت خفيض مما زاد من حنقهِ، وقالت: ظننت أنّك تحدق بي لكي تتكلم، وأيضًا لقد استعدت طاقتي ومستعدة لننهي الحديث الذي دار بيننا.

قال لها بعدما تمالك نفسه وعاد تنفسهُ سوياً: لا عليك، سوف أعتاد على الأمر تدريجياً.

وفي هذه اللحظات تأكد أن ما دار بينهما سابقاً لم يكن وهماً.

أكملت الشجرة ضحكاتها المستفزة.

فقال هاني: هل دروس الاحترام وآداب الحديث يجب أن تطبق من جانبي فقط؟!

أبقت الشجرة في صوتها شيء من الابتهاج وقالت: حسناً، أعتذر ولكنك أضحكتني حقاً. وقبل أن أنسى دعني أخبرك ما يجب عليك فعله، قبل أن يصيبني التعب، فالحديث مع البشر يستنفد طاقة كبيرة مني.

قالت شجرة الزيتون: تلك الشجرة الكبيرة أمام منزل يحيى هي التي كشفت كل مخططات الساحرة، فبجذورها تمددت أسفل حديقة المنزل حتى وصلت إلى المياه وعلمت بوجود الختم وأيضا تواصلت مع طربوش، ولأنه يحوي جزءًا من الخشب استطاعت التحدث معه، وما عليك الآن سوى أن تصل لتلك الشجرة وسوف تخبرك ماذا ستفعل لاحقا، وكيف تكسر الحلقة المصنوعة حول المنزل التي تمنعنا من الوصول له، تابعت سوف ينتظرك قط خلال هذا اليوم، هو سوف يدلك وتستطيع أن تدلك على الشجرة. عاد التعب مرة أخرى إليها؛ فالحديث استنفد طاقة كبيرة منها. قال هاني: لا تنامي وأنصتي إليّ؛ ما هو شكل القط وأين ألتقيه؟ سكتت الشجرة ولم تقم بأيّة استجابة. عاد هاني ليكمل شرب كأس الشاي، ولم ينته منه بعد حتى دبت الحماسة فيه، غيَّر ملابسه وخرج مسرعاً، كانت أفكاره تسبق خطواته الكبيرة. يتوقع ويفكر ما ينتظره. يسير هاني وكلما شاهد قطًا كان يقترب منه، ويحاول هاني الحديث معهم ولكنهم كانوا يهربون فهذه هي طباعهم في هذه المدينة، حتى شعر بالملل من ملاحقتهم، وقرر فقط أن يصل إلى بيت يحيى بأيّة طريقة.

الفصل الثامن

الشجرة دائمة الخضرة

وصلَ هاني إلى الشارعِ الذي يؤدي إلى الساحةِ القريبةِ منْ منزلِ يحيي وفي بدايتهِ عندَ زاويةِ الزقاقِ كانَ هناكَ قطٌّ أسود اللونِ وقوائمِه بيضاء، وعند دخول هاني الزقاق بسرعته تلك، مشى بجانبِهِ القطِ بخفةٍ وسرعةٍ تجاري سرعةَ هاني ، وبعدها ببضع دقائق بدأت سرعة هاني تقل أكثر من ذي قبل، شعر بتغير بضغط الهواء في أذنيه وكانت أخف من سابقاتها واعتقد أنّه بسبب الجو الحار وتغير ضغط الهواء الساخن داخل الزقاق، وسأل موجهاً كلامه للقط: لماذا أبطأت؟ هل أنت متعب؟ وكان واثقا هذه المرة بأن هذا القط سوف يجاوبه.

لم يكن يفكر بأيّ شيء آخر فقط، رِجلاه تسيران لوحدهما، ويفكر بالقط الذي ساعده على التخلص من أفكاره المتشابكة.

يقف القط ويغلق عينيه ببطء ويتوقف بدوره هاني، فيقول القط:

- أشعر بالملل - وهو يفرك يده بوجه ويتابع- من الجيد أنّك تحدثت، لأنك لو لم تتكلم لما فاتحتك بشيء.
- يقول هاني: هذا إذًا من حسن حظي، أنني بادرت بالحديث أولاً.
- يقول القط: من الجيد أنّك تتكلم أيضًا، فأنا لم أعتقد مسبقا أن البشر يتكلمون، كنت أعتقد أنكم تطلقون تأوهات غريبة بين بعضكم البعض.

  مؤخرا فقط. جاوبه هاني.
- مؤخراً ماذا؟ بتلقائية سريعة سأله القط.

صرف هاني نظره عن القط والتفت لنهاية الشارع ويفكر بالوصول للشجرة، عند حديثه مع القط وتفكيره بالشجرة نسي أمراً أنّه من الممكن أن يكون هذا القط الأسود ذو الأرجل البيضاء هو القط الذي حدثته عنه شجرة الزيتون، كان التعب والتفكير بالوصول للشجرة، هما ما يشغلان باله.

- جاوب هاني القط: أنا أعنى مؤخراً فقط بدأت بالحديث مع الأشجار، وأيضًا أفهم ما تقوله الطيور، ولكن مع القطط هذه ليست أول مرة، فلقد كان لي محاولات منذ زمن بعيد.
- قال القط: أنا لا أحبذ أحاديث الشجر، فهم يتحدثون ببطء شديد وكلامهم يكاد يكون مبتذلا، ولكن العصافير مذاقها لذيذ.
- قال هاني متحمساً: هل تحدثت مع شجرة أيضاً.
- قالَ القطُ : أتحدثُ معَ شجرةٍ واحدةٍ فقطْ ، وهيَ تتكلمُ بنشاطٍ وسرعةٍ غيرِ معهودتينِ ، وعندَ هذهِ الشجرةِ أباتُ في الليلِ وأنامُ على أحاديثِها.
- سأله هاني بعدما تذكر كلام شجرة الزيتون عن القط: عن أيّ شجرة تتحدث؟
- التي أمام ذلك المنزل - يقول القط مشيراً برأسه إلى منزل يحيى -أحاديثها مملة ولكن بسبب دبقها تأتي إليها الحشرات كثيرًا فألتهمها. واليوم طلبت مني مقابلتك لأرشدك لها.
- قال هاني بعصبية: ماذا تنتظر أيها القط الخبيث؟ كل هذا الوقت وأنت لا تقول لي أنّها أرسلتك؟ فأنا أبحث عنك، هيا دلني عليها.
- لم أعتقد أن تعريفي بنفسي لك أمر مهم. يكفي أني تابعت المسير معك.
- قال هاني: حسناً، نسيت أنّك لا تتكلم مع البشر- قال في داخله: يالغباء هذا القطِ، سأحاول أن أعرف منه كل شيء عن المنزل قبل أن أقابل الشجرة

لعله يعلم بأمور أخرى وسوف استدرجه بالكلام- ويتابع هاني، ويسأله: هل دخلت منزل يحيى في يوم ما؟

- يقول الآن بطريقة أكثر جدية: أنا آكل الحشرات في أيّ مكان، إنّها مهمتي، ويقولها بكل فخر، وكأنه موظف لدى البلدية وقد توظف ليؤدي هذه المهمة. ويتابع القط: ولدي صديقي أيضًا هو قط مدلل في منزل يحيى ولكنه يشبه الدمى المتحركة أكثر من كونه قطًا.
- يسأله هاني بدوره: قط يشبه الدمية؟ وما الذي يجعلك تقول ذلك؟
- قال القط كأنّما الإجابة بحد ذاتها مزعجة لنفسه قبل أن يقولها: يكاد يكون هكذا، إنّه مطيعٌ جداً، ويكاد يكون كلبًا وليس قطًا لتلك السيدة العجوز.

علم هاني عن ذلك الطربوش الذي يخص يحيى، هو من يقصده القط. فقال هاني: أخبرني أكثر عنه ونحن نسير إلى الشجرة كيف هي علاقتك به؟

- أجابه القط بدون تردد ومسرعاً بكلامه، وانفعل غضباً عند تذكره الأمر، وكيف كانت الحالة التي وجد بها الطربوش، وقال: في ذات يوم كنت مستلقيَ على السور المحيط للمنزل، وعندها رأيت ذلك القط، فقلت له انضم إلي. كانت تعلوه دائمًا تلك القبعة التي تشبه الأسطوانة ولقد كان لطيفاً جداً إلى حد كبير ومرحاً أيضًا في غياب سيده وأجابني بصوته الغريب: متاح لي كل ما أُريده هنا من طعام ومأوى. فقلت له: ولكنني لا أراك في الجوار قَطُّ، ولا أراك تتواصل مع أحد أيضاً؟ فيجاوبني وبطريقة ساذجة: أنا أتحدث من الحين للآخر مع بقية القطط ولكنني لست بقط. أضحكني حتى قلبت على ظهري وبانت أنيابي، أغمضت عيني من شدة الضحك وكدت أن أقع من على السور، تمالكت نفسي وقلت له بعد ذلك: ما اختلافكَ عنا هلْ لونكَ البنيُ أمُ فرائكَ المتصلبةُ ؟ أجابني وكان يتكلم بجديه بادياً عليه الانزعاج مما قلته وفي كلامه حرقة: إن أخبرتُكَ بقصتي لتعجبت منها وقد لا تصدقني. فقلت له:

أخبرني لعلي أكون سنداً وصديقاً لك، اروِ لي قصتك وأنا سوف أحكم، هل هي فعلاً بهذا العجب؟

جلس طربوش على قائمتيه الخلفيتين وكأنه يتشبه بالبشر، ضم قائمتيه العلويتين لبعضهما متكتفا، ورفع منكبيه للأعلى وقال: أنا مِن صُنع العجوز الساحرة.

استغربت مباشره من كلامه المفاجئ واعتقدت أن فيه مس من الجنون، فقلت له مستغرباً بلهجة إنكار: كيف ذلك؟ فجميعنا ولدنا من بطون أمهاتنا ورضعنا من حليبهن، وكلنا على خلق واحد. قاطعني غاضباً وقال: أرأيت؟ أنت لا تصدقني، دعني أكمل حديثي، وتابع: أنا اسمي طربوش.

- سألته: ماذا تعني بالطربوش؟
- ألا تراها؟! أجابني وتابع، إنّها قبعة حمراء اللون كالكأس المقلوب، وهذه الخيوط الحريرية السوداء وحرك رأسهُ يميناً ويساراً لتتأرجحَ بالهواءِ.
- حسناً، قال القط ولم يفهم شيئا مما قاله الطربوش وتابع: أستطيع أن أناديك سيد طربوش؟
- طبعًا تستطيع ولكن بدون كلمة سيد، وتابع كلامه برصانة لم اعهدها بالقطط من قبل: لقد كانت لحظة فيها كل شيء أبيض متألق يشع بالنور، ولم أستطع تمييز الموجودات من حولي، بدأ جسمي بالتكون في عاصفة في غرفه من غرف هذا المنزل، سقطت على الأرض وكانت أمامي امرأة واعتبرتها والدتي منذ أن قدمت لهذه الدنيا، وأعتقد أنّها هي من صنعتني لقد أقبلت علي وهي تبكي فرحاً بقدومي، ونزعت عني قبعتي ونظرت بداخلها. وأضاف وأرخى كتفيه أكثر ليبدو عليه الهدوء، وأنا في هذا المنزل منذ ولادتي دائماً.

- هذا الأمر عجيبٌ حقاً، قلت له: هل حاولت سابقاً الخروج من هذا المنزل؟ فأجابني وبدأَ بفكِ يديهِ عنْ بعضهما وهوَ يعبرُ بهما: لا أستطيع الخروج إلى الحديقة، لأن ترابها يُضعفني وأكاد أحترق عند ملامستها.
- قلت له: إنني أرثى لحالك، وقصتك أعجب ما سمعت ولكنك تتكلم جيداً.
- قال: كان لدي صديقة تأتي إلى هنا.
- قاطعته: آه، الجنس طبعًا وتابعت: إنّه لأمرٌ مُقدس لدينا فلا يمنعنا من فعلهِ مواءٌ ولا حَرَجٍ، لقد كان لدي صديقات كُثر. آه يا قطتي العزيزة، كانت بيضاء اللون ولم أجد برقتها مثيل.
- لا أدرى إن كنت حقاً أشعر بهذا الشيء، أو أستطيع الشعور به. التغير في جسدي يؤلمني يومياً. عندما يغيب صاحبي الشاب، أشعر بشيء يتغير بداخلي وأصبح أكثر نشاطاً، ولكن عند عودته للمنزل لا أكاد أقوى على الحراك. وتابع كلامه كأنّه تذكر شيئًا لتوه: سابقاً قد ارتبط في صداقة حميمية مع إحدى القطط وهي التي علمتني كيف أتكلم وكل شيء عنكم ولكنها غابت عني دون سبب.
- نعم إنّه حالُنا، إمّا نُقتل أو نقع ضحية حادث مروري ناهيك عن أذية الأطفال في الشوارع والناس عموماً، وتابعت: ولكن قد يلتقون بقطط غيرنا، وهذا كل ما في الأمر، وأيضًا ذاكرتي ضعيفة فأنا أيضًا لا أتذكر جيدا كيف اختفت قطتي الجميلة من حياتي مثلك، نحن لسنا مثل الكلاب الذين لا يفارقون مالكهم حتى بعد موته، إنّه طبعهم الغريب.
- قال لي طربوش: أنا لم ألتقِ كلبًا في حياتي، ولكنني أعلم أن طباعهم غريبة.
- وأقول له مؤكداً: يكفينا طعامنا ومن يدللنا ونلهو معه وهذا ما نريده ولا يهمنا البقاء في مكان واحد، وتلك اللباقة المعتادة والرسميات من تخصص الكلاب.



• علم هاني أن سبب عدم خروج ذلك الطربوش هو تلك الحلقة، وسأله: وهل ما زلت تتحدث معه؟ وأجاب القط: طبعًا ما زلنا أصدقاء ولكنه جبان لا يخرج.

واصلا السير نحو الشجرة وقفز القط إلى أغصان تلك الشجرة، وقال: ها هي ذي. تمدد وبدأ يلعق أسفل بطنه ومن ثم تثاءب.

• هل ستنام؟ سأله هاني.

أغمض القط عينيه و أرخى ذيله ليتدلى في الهواء.

نظر هاني إلى الشجرة وأيضًا حوله كي يكون متأكداً ألّا يلاحظ أحدٌ وجوده في هذا الزقاق. وهبت ريحٌ قوية صفعت وجهه وبدأت أذناه بالطنين. قال مباشرة كأنّه يريد الكلام فقط لإيقاف تلك الرياح: مرحباً.

فأجابه صوت: أنت هنا، هل أخرك القط بثرثته المعتادة؟ أنا أعتذر لك.

قال وهو ينظر إلى الشجرة فلقد بانت معالمها: لا أستطيع التحدث معكِ طويلا كي لا ينتبه أحد.

قالت له الشجرة: لا عليك فالوقت عندنا مختلف عنكم، فحياتنا طويلة ونحن معمرين بالنسبة لكم، وأحاديثنا بطيئة وتشعر بها كأنها ساعات ولكن بزمن قصير بالنسبة لحياتك أنت، فالحديث معك قد يصل في وقتكم كما تقدرونه بشرياً أجزاء من الثانية.

ساورت هاني أفكار في هذه اللحظة، عن سبب حدوث الأصوات وضغط الهواء في أذنيه قبل الحديث مباشرة مع الشجرة، وتذكر هاني أنّه عندما كان واقفًا مع الشجرة الزيتون أول مرة لم يشعر بتعب في ساقه. فسأل هاني الشجرة: وما سبب ذلك؟

أجابته: السبب يكمن في أنّه لدينا القدرة على أن نعطيك من زمن حياتنا وقتًا لكيلا تهدره من حياتك وأنت تتكلم معي فقط.

فقال لها بقلق: وماذا عن القطط أنا أيضًا أشعر بنفس الشيء؟

لا عليك، إن الفرق بين حياتك وحياة القطط ضئيل، لذلك يكون فقدانك للوقت من عمرك ضئيل أيضاً.

إنها كالأواني المستطرقة!: قال هاني.

ما هذا الشيء؟ سألته الشجرة.

نحن كالإناء وأعمارنا هي سعتنا ومتصلين جميعنا برابط الزمن في قاعدتنا سوياً، ولكن لكي نتساوى في مستوى السائل في داخلنا فإننا نقوم إمّا بخسارة السائل أو بإعطائه لغيرنا لكي نصل لمستوى واحد وسوية واحدة، هذا ما يحدث عندما نتكلم كلنا معاً نصل إلى سوية نستطيع التواصل فيها.

قالت الشجرة بعصبية: كفى! كم أنت ثرثارٌ حقاً، اعتقدتُ أن القط هو فقط من يتكلم بالترهات ولكن ها أنت أيضًا تتكلم بكلام مبهم ولا أستطيع فهم كلمة مما تحدث، عن أيّ سائل، وكيف تسمح لنفسك لتشبهني بالأواني؟ أليس لديك احترام؟

قال هاني: آه، الاحترام حدثتني عنه شجرة الزيتون وهي التي بادرت بعدها لكسر هذه القاعدة أولاً - قال في سره يبدو أن الأشجار مهتمين جداً بالاحترام لنفسهم فقط- وتابع، السائل أقصد به الزمن، أيّ الزمن من أعمارنا الذي....

قاطعته الشجرة وقالت له: يكفي، أنت تهدر الوقت. وتابعت: لقد بدأ الأمر منذ زمن بعيد، وأنا مُتَجذرة هنا قبل 20 سنة -كاد أن يضحك هاني عند سماعه الشجرة تتكلم وتقول أنّها متجذرة ولكنه تدارك نفسه لكيلا تسخط عليه، وتمتنع عن الكلام- بعدما وصلت جذوري إلى أسفل البيت، تنبهت لوجود جثة بشرية هناك، وبمرور الوقت تغيرت حالي وأصبحت أكثر نشاطا وقوة وخضارا، لقد تغير شيئا أسفل هذا المنزل وخصوصاً المياه الجارية تحته.

قال هاني بلهفة وبصوت خفيض وهو مندمج بحديث الشجرة، كطفلٍ صغير يسمع قصة من والده وتكلم بتلقائية: ما هو؟

تابعت الشجرة قائله: أصبحت المياه تزداد يوماً بعد يوم في جوف الأرض، حتى أصبح أسفل هذه المنطقة من المدينة مخزون مائي لنهر جارٍ، وهو يحمل طاقة رهيبة وهو السبب في تغيير نشاطي وحياتي.

فإذاً أنت لم تتأثري بالحلقة المحيطة بالمنزل! قالها هاني باستغراب قليل حتى وهو يسمع نفسه يسأل هذا السؤال.

قالت الشجرة: إن جذوري عميقةٌ جداً ولا تصل لسطح التراب، ولقد سبقت تكوين الحلقة، يبدو أن الساحرة غفلت عن هذا الأمر وهذا من حظي الجيد لأكشف مخططاتها.

لقد تعلمت بعضًا من السحر وفهمت أن هذه الحلقة مخصصة للأشجار والنباتات لكيلا تصل إلى تلك المياه وتستنزفها.

قال لها: لم أتصور يوماً أن الأشجار تستطيع تعلم السحر.

قالت له: دعني أضيفُ لك أيضًا أنني تعلمته عن طريق القراءة، ذهل هاني من سماع ذلك وأرخى فكه قليلاً وتبعت الشجرة الحديث، وذلك لأن العجوز أخفت كتبها في آبار جافة قديمة.

- هذا يعني... سكت هاني وهو يفكر: كيف يمكن لها أن تفعل ذلك، قال لها: افصحي أكثر، كيف تعلمتِ القراءة؟ وكيف فعلت كل هذا؟ التعلم أمر مثير للإهتمام.

- قالت له الشجرة برصانة: الأمر ليس كما تفعلونه أنتم للقراءة وذلك باستخدام أعينكم. إن الكتب المصنوعة قديماً من لحاء الشجر ومن أوراق طبيعية أستطيع أن أتواصل معها.

- كيف وصلتِ إلى تلك الكتب؟ كيف تتواصلين معها؟

- يبدو أن هوايتك هي الأسئلة فقط، تقول الشجرة وتتابع، كان القدماء في هذه المدينة يخفون ثقافتهم وفلسفتهم الباطنية والدينية وأفكارهم الخاصة من خلال كتبهم في آبار مغلقة، وعندما يريدون دراستها يخرجونها وبعد الانتهاء من قراءتها و يعيدونها لمكانها. هكذا حافظوا عليها لسنوات طويلة. إنّه أمر شاق ولكنهم كانوا مضطرين لفعل ذلك، لأن أعداء أفكارهم كثيرون. ولهذا قد اتبعت هذه الطريقة الساحرة، وخزنت كتبها في تلك الآبار وفي أماكن عديدة من هذه المدينة.

- أنتِ تتكلمين عن وجود أماكن أخرى لهذه الكتب في المدينة وهذا يعني أنّه يوجد أشجار أخرى قد وصلت لهذه الآبار أيضاً، قال هاني.

- ابتسمت الشجرة قليلاً بطريقة غريبة منفرة: في منطقة الأقنية مياه جوفية وآبار كثيرة، وهي تقع شرق السرايا[28] والحمام الأثري، ولقد شعرت بعض الأشجار المحيطة بتلك المنطقة، وتناقلنا الأخبار وحددنا مكان ثلاث مناطق. ظهر فعلاً أنّها تحوي خزانات مياه جوفية كالتي متواجدة هنا، لا يوجد قبور في جوارها.

- قال هاني: إن الساحرة تعمل في تجارة العقارات والبيوت في مرحلة بعد أن ازدهر عملها في السحر الأسود، أعتقد أن هذه البيوت جميعها لها صلة بالسيدة العجوز تلك، وأنهى هاني كلامه كعادته بسؤال: ألا تعتقدين ذلك؟.

- قالت الشجرة الدائمة الخضرة: هذا الأمر غير مستبعد، ما علينا فعله هو استكشاف موقع تلك المنازل، ومن ثم تنفيذ الخطوة القادمة وتابعت: إن الطرابيش يتحكمون بكل مواردنا وأيضًا قد قامت الساحرة بإخفاء آثارنا وطمست هويتنا.

- هل تعتقدين أن الساحرة هي وراء كل ما يحصل من جفاف في هذه المنطقة؟ يسألها هاني.

28- السرايا: حالياً مركز الشرطة في وسط المدينة (ساحة الحرية).

- طبعًا، يا لك من أحمق! وهل تعتقد أن كل هذه المياه التي تخفيها وتمنعها عن الجميع ليست بهذه الاهمية؟! -تسأله الشجرة دائمة الخضرة كتصحيح لأفكاره- إنّها كل شيء بالنسبة لنا، ولكل شيء حي في هذه المنطقة.

- قال هاني غاضباً: هل يمكن أن تخبريني أيْن توجد هذه البيوت حالاً؟

- ياحماس الشباب، دائماً يكونوا مندفعين نحو هدف وينسون وضع خطة للوصول له، قالت الشجرة وتابعت، عليك رسم طريقك، وضَع درجات سلمك بإحكام قبل أن تصعد إليه، تذكر هذا جيداً، الأساس أهم شيء في البناء. فأنت لا تملك شيئًا يحميك من بطشها، وهل تعتقد أنّها ليست حذرة من اكتشاف أحد ما أمرها؟ لذلك لا تفعل شيء بدون علمي وليس لوحدك يضاً.

- قال هاني بعفوية: معي القط. سمع القط ما قاله هاني لكنه لم يعره انتباهه، وأبقى عينيه مغلقتين وهو يهز ذيله المتدلي في الهواء.

- قالت له: لعلك لم تدرك الأمر بعد، لا عليك، سوف أعطيك هذه العصا -ورمت له بالعصا أمام قدميه- وهي سوف تشير لك على البيوت.

عند سماع صوت سقوط الغصن فتح القط عينيه بفضول ليشاهد ما يحدث وتابع الأمر باهتمام.

- إن هذا الغصن جزء مني ومن خلاله أكون على تواصل معك، قالت له الشجرة دائمة الخضرة.

- نظر هاني للغصن المرمي على الأرض وقال: إنّه مجرد غصن.

طلبت بحزم منه الشجرة الإمساك بالغصن، فتلقفه هاني من الأرض وعندما رفع رأسه، كان هنالك ورقة خضراء طافية في الهواء أمام عينيه، كانت من الشجرة دائمة الخضرة.

قالت له الشجرة: مد يدك وأبقِ الغصن ثابتًا في الهواء.

فعل هاني ما طلبته الشجرة، وكانت تلك الورقة مرسوم عليها شيء غير مفهوم كالدوائر يتوسطها مثلثات، اقتربت الورقة العائمة في الهواء من العصا والتصقت بجذعها واحترقت، وشعر هاني بعد ذلك أن العصا أصبحت ذات رطوبة أعلى، ولحائها أكثر خضرة من ذي قبل وأصبحت أكثر استقامة، وظهر عليها بشكل خط مستقيم اثنا عشر برعما مزدوجا نبتوا بسرعة كبيرة. قالت له الشجرة:

- هذه العصا أصبحت ملكك، وتستطيع التحكم بها وأنا أستطيع التواصل معك من خلالها. وهذه البراعم عددها بعدد الساعات التي تستطيع العصا العمل خلالها؛ أي يوم كامل، وأن اختفت جميع البراعم فإن العصا تفقد قدراتها، لذلك عليك العودة إليّ قبل ذلك، لأعطيك ورقة مختومة أخرى لتستعيد بها قوتها.

قال هاني: ولكن كيف أتحكم في هذا الشيء؟

- قالت الشجرة ما عليك فعله هو أن تفكر وتتخيل أمراً تريد حدوثه، وسوف يحدث ذلك، ولكن الأمر يعتمد على مقدار ما يحيط بك من وسائل تستطيع استخدامها، ولكي تتواصل معي فكر بي فقط.

- وهل تحقق الأماني أيضا؟ أم تحول الحجارة لذهب؟ وقال ذلك باستهزاء.

- أرادت الشجرة اختبار وتدريب هاني فقالت: لا تبالغ بأمانيك. أول أمر أُريده منك هو أن ترفع هذه الورقة الخضراء للتدريب وتهادت ورقة من أوراقها وسقطت على الأرض.

- سأل هاني: أرفعها بيدي؟

-فأجابته الشجرة: حاول باستخدام العصا، وفكر بالأمر، فقط ركز جيداً، وتصور الأمر في مخيلتك قبل تطبيقه، وتصور أنّك تأمر العصا لترفع الورقة وتعوم بالهواء.

رفع هاني العصا وأغمض عينيه، واخذ نفساً عميقاً وحاول تخيل أنّه يرفع الورقة متصوراً أياه يفعلها، وعندما فتح عينيه وهو يدير العصا في الهواء وقع نظره على القط، فشاهد القط يتشبث بمخالبه بغصن الشجرة وفتح القط فمه وبدأ بالمواء، وما هي إلا

ثواني حتى بدأ يتأرجح في الهواء مع حركة عصى هاني، وبقي خائفًا يموء بالهوى دون أن يهبط وأطرافه الأربع بمخالبها البارزة مشدودة نحو الأرض، وظهره المقوس النافر للأعلى في الهواء من فزعه وخوفه، وحرك هاني يده بخفه يميناً ويساراً وإذا القط يتخبط بين جدران الزقاق، شعر هاني بالذنب ولم يحرك يده وبقي القط عائماً في الهواء ولا يتحرك، وأمرت الشجرة دائمة الخضرة هاني بصوتٍ عالٍ: أعده للأرض حالاً وبهدوء. أنزلني، أنزلني، قالها القط مرعوباً خائف، وهو يفرد مخالبه عن بعضها البعض، وعينيه متسعتان لأكبر قدر ممكن. تريث هاني وتخيل بعقله أن القط يهبط للأرض برفق وبشكلٍ بطيء جداً وما هي إلا لحظات حتى فتح عينيه وبقيت العصا في يده ثابتة، وبدأ بتحريك عصاه للأسفل، وهو يسقط تخيلاته على القط، وبالفعل استجابت العصا وبدأ هبوط القط تدريجياً إلى أنا التصق القط بالأرض.

كانت لحظة اندهاش وصدمة كبيرتين للقط، وقف على قوائمِه الأربعة،ونظرَ إلى هاني نظرةً خاطفةً، وهرب خلف الشجرة ودار حول نفسه وكشر عن أنيابه وهو ينظر إلى هاني بغضب.

- قال هاني: لم أقصد ذلك، أنا أعتذر.
- قالت الشجرة: ياللهول! تحتاجُ تدريباً كثيرًا، وتابعت: الآن قد أثبتَّ جدارتك وقدرتك على أن تفعل شيئا ما وأنك قادر على استخدام السحر.

رغم فظاعة الأمر كان في داخل هاني سرور وفرح كبيرين وقال بصوت يكاد يكتم من فمه المتشدق فرحاً وفكيه المطبقين: أنا ساحر، أنا قادر على عمل السحر.

- قالت الشجرة إنّك تحكمت بالقط وليس بالورقة كما طلبت منك، هذا يعني أنّك تستطيع أن تستخدم العصا وأنّه لديك قابلية لتعلم السحر، وربما في مواقف أخرى تستطيع أن تصنع ما هو أعظم من ذلك، وأنت تلائمك هذه العصا.
- قال هاني: سأحاول مرة أخرى.

- قالتْ الشجرةُ بسرعةٍ والقطِ قدْ اختبأَ وراءها: لا.
- وصرخ القط فزعاً: لا.
- توقف هاني ونظر إليهم وقال: أعتذر عن شدة حماستي.
- قالت له الشجرة دائمة الخضرة: هل تعلم ما ينقصك لتصبح ساحرا؟

تراجع القط إلى خلف الشجرة وأسدل أُذنيه.

- الشجرة تجيب عن سؤالها: حيوانًا أليفًا.
- قال هاني: ماذا عن هذا القط؟
- قالت الشجرة: إنّه الحيوان الأليف الأكثر شيوعاً لدى السحرة، أو أنك تفضل اختيار بومة.
- انتفض القط لسماعه الفكرة وقال: نعم تستطيع أن تجد بومة ترافقك في هذه المهمة.
- قال هاني: لا يوجد بوم في هذه المدينة، وأنت لا يُشك بأمرك.
- ردت عليه الشجرة: يوجد بوم ولكن طالما أننا لا نستطيع الحصول عليه الآن، لا يوجد مفر من قبول القط وموافقته على مرافقتك.
- تذمر القط قائلاً: ليس لدينا وقت نحن القطط، حياتنا قصيرة وعلينا أن نتزاوج.

رفعت الشجرة القط في الهواء إلى أن أصبح أمام أغصانها وقالت: تتزوج إذًا! وأين؟ خارج المدينة؟ هل تعتقد سوف يتم ذلك دون علم مني؟

- ارتعب وأنزل أذنيه وكبرت عينيه وحاول أن يبتسم. كان منظره شنيعاً أكثر من أنه مضحك.
- قالت له وهي تنزله ووضعته بين يدي هاني: أنت قط فظيع. وكانت طريقتها في الكلام مع القط قاسية فجعلته خائفا مطيعا.

- وقالت الشجرة مخاطبة هاني: الآن تعرف ماذا ستفعل. هذا كل شيء اليوم. ولا تنسى أمر العصا، تعال قبل انقضاء **24** ساعة.

ظل هاني حاملاً القط بيديه والعصا أيضًا، وعندها شعر بضغط هواء سريع أشعره بالصمم، فأفلت القط والعصا بآن واحد ورفع يديه ليسد أُذنيه، فعل ذلك بشكل عفوي. سقط القط على رجليه وقال: أهكذا هي البداية؟ قالها متذمراً غاضباً.

قال هاني: إنه...

قاطعه القط قائلاً: لا تتكلم معي بهذه الطريقة، ألا تعلم أن الشجرة.. وسكت القط فجأة عندما رأى هاني يرفع العصا من الأرض، وحرك عينيه يميناً ويساراً بين هاني والشجرة.

سارا معاً، وتبع القط هان بدون أن ينبث. مازال اليوم بأوله والشمس لم تصل لمنتصف السماء، قال هاني في نفسه، وتابع كيف أتواصل مع الشجرة؟ وأظن أنني قادر على إيجاد البيوت اليوم قبل الغد.

- خاطب هاني القط: عندي فكرة سوف تجعلنا نجد البيوت جميعها اليوم.

- يا لحماستكَ! أرجو أن تحافظ عليها أيضًا عندما أطلب الطعام. قال القط.

- قال هاني: يا لك من قط انتهازي.

- قال القط رافعاً شارباه في الهواء: لا أعلم معنى كلمة انتهازي، ولكن ما أعلمه أن سمكة تملأ بطني، هي أكثر فائدة من معرفتي بما تعنيه هذه الكلمة.

- قال هاني: هذا مؤكد، سوف تأكل ولا داعي للقلق. تابع، عليّ أن أتواصل مع الشجرة لتدلني على مكان البيوت الثلاثة.

فقال لنفسه عليّ أن أركز وأتذكر الشجرة في عقلي وأيضًا العصا، لعلهما تستطيعان إخباري.

وأثناء تصوره لذلك في عقله، وهو ينظر للعصا بدأت بالاهتزاز في يده، والبراعم الاثنا عشر المزدوجة بدأت تتحرك بشكل متوازن، وأدار هاني العصا يميناً ويساراً وبقيت البراعم ثابتة على تجاهها نحو نقطة واحدة.

- قال بصوت عالٍ وهو تغمرهُ السعادة يخاطبُ القط بحماس عارم: لقد نجحت نجحت، والعصا تتفاعل معي، انظر.

نظر القط بدوره للعصا ومن ثم لهاني، ولكنه لم يفهم شيئاً. بدأ هاني بالركض مسرعاً والقط يتبعه وهو يقول: انتظرني. ويرددها مراراً، وأصبحا يجريان بسرعة أكبر.

تابعا الجري، ولكن ما لبثا أن خفَّت سرعتهما، فلقد أصبحت الحارات أكثر ضيقاً، وأغلب الشوارع والأزقة لا مخرج منها، ورغم ذلك لم تتوقف العصا عن الاهتزاز والبراعم عن التوجيه.

قال هاني في نفسه: عليّ استخدام تطبيق هاتفي المحمول (جوجل للخرائط) لعلي أستدلُ بواسطته، ولكي أصبح أكثر تحكما عليّ أيضًا الذهاب للشارع العام وكان أقرب شارع عام يسمى شارع الثورة، بعدما وصلا إليه، تغير وبشكل طفيف إتجاه البراعم.

كان في بداية الشارع تقريباً من الشرق وكان بجانبه مدرسة تدعى ميسلون، وتابعا سيرهما نحو الغرب وخلال خمس دقائق تماماً وصلا إلى تقاطع طرق وعندها تغيرت أشكال البراعم، البعض منها اتجه إلى اليمين والآخر نحو اليسار، وكان على يمينه سوق صغير يحوي كابينات تجارية صغيرة، وللأمام بجهة اليسار يوجد مسجد الإمام رضي الدين عبد الله[29]، كان يجب على هاني الاختيار، فهو لم يكن يدرك ما يجب عليه فعله، فاختار الاتجاه نحو اليسار. كانت نظرات المتسوقين والباعة وحتى المارة نحوهم توحي باستغراب، لقد كان من الغريب جداً أن يسير رجل ومعه قطه في الشارع، أو حتى حيوان أليف ولكن كان هناك بعض الشابات والشبان يحبون كلاب الهاسكي

[29] - مسجد الإمام رضي الدين عبد الله: المسجد الخامس سابقاً.

تحديداً وبدت هذه الظاهرة في المدينة كالموضة أكثر من كونها حباً للحيوانات، حتى أصبحت بعد فترة أمرا معتادا عليه، ويبدو أن الناس فعلاً وقعوا في حب هذه الحيوانات الأليفة واحتلت جزءًا من حياتهم، ولكن القطط كانت مظلومة جداً وندر أن يحتفظوا بها كالكلاب، حتى أن بعض أهالي المدينة يتحدثون عن ظاهرة تربية الكلاب في المنازل ورمي الأطفال في الشوارع للعلب دون رعاية.

اتجه هاني والقط بشكل محاذٍ للمسجد نحو الجنوب والبراعم تغير اتجاهها، ووصلا لنهاية الشارع وعند الالتفاف نحو اليمين أثناء تخطيه الزاوية تغير معه الاتجاه الذي تشير إليه البراعم وبقيت تشير إلى الزاوية البيوت التي على يمينه، علم أنّه وصل إلى أول منزل ولكنه لم يستطع تحديد أيّ من هذه المنازل هو الصحيح. حدد مكانه وحفظه على خريطة جوجل في جواله وحدده بعلامة النجمة، ولم يدخل البيت أو يبحث أيْن توجد الحلقة الخاصة به كما قالت له الشجرة، وكانت هنالك أشجار على يساره وفي كل مكان تقريباً في الحي، وحتى داخل البيوت، فلقد كان الحي شعبياً إلى حد كبير. قال هاني للقط: سوف أذهب للاتجاه الثاني الذي أشارت إليه البراعم عند التقاطع. عاد هاني معَ القطِ لشارعِ الثورةِ مرةً أخرى وقطعاهُ معا إلى الجهةِ الشماليةِ منهُ ، متابعاً هاني سيره وبحثه حتى وصل إلى وجهتهِ تقريباً، وتغيرت أعداد البراعم وذلك لمضي ساعة من الزمن فأصبحت ثلاثة وعشرون برعماً. سار هاني ذهاباً وإياباً في الشارع، وعلى يساره تدل البراعم ثانية، وتغيرت تغيراً بسيطاً لليمين عندما اتجه للغرب وتابع مسيره حتى وجد أنّه يدور حول بيوت قليلة مجتمعة كأنها جزيرة صغيرة بين شارعين فرعيين، كان بديهياً أن يعلم أن البيت هو إحداها ووضع علامة أخرى على الخريطة في جواله، مرت ساعة أخرى بدون أن يشعر بالوقت حتى أصبح عدد البراعم إلى اثنين وعشرين ومازال القط يسير بجواره منهك

القوى، وقال هاني للقط بعدما لاحظ أمره: سوف أعود إلى المنزل الآن، وسوف نتناول الغداء وبعدها نعاود البحث عند العصر.

وافقهُ القط الرأي، وعادا من نفس المكان الذي أتيا منه من البيت الأول الذي وجدوه، فعل هاني ذلك لكي يحفظ المكان في ذاكرته، وبعد ذلك اتجه غرباً نحو جامع الإمام إسماعيل، وهنالك لاحظ هاني أن البراعم قد تغير تجاهها قبل أن يصلا للجامع وقال للقط: توقف هنا، هنا يوجد المنزل الثالث. وإذ به يسير بسرعة، والقط بغريزته تلقف في الشارع إحدى الحشرات، وهاني لم ينتبه له، بقي يستدل للمنزل الثالث بشغف كبير، وكان في الشارع المتجه إلى الحمام الأثري، وكان المكان يحوي أشجارا ولكن بشكل أقلّ من سابقيه، فوضع هاني علامة على الخريطة وغمرته السعادة لإيجاده البيوت الثلاثة في يوم واحد وخلال وقت أقلّ من ثلاث ساعات، ونظر حوله لكنه لم يجد القط.

عاد هاني أدراجه نحو الجامع، وإذ يلتقي القط وهو يتناول أشياء من القمامة المتناثرة على الطريق، عندها أدرك هاني أنّه هو أيضًا جائع، لذلك قرر العودة للمنزل ومن ثم يستأنف ما توقف عنده. وضع جواله في جيبه وعاد إلى المنزل منهكاً. لم يكن مسموحاً لدخول الحيوانات للمنزل، ولكنه بالرغم من هذا أدخل القط المنزل، وبعدها أخذه للطابق العلوي وأخفاه عن والدتهِ، فقال للقط: لا تصدر أيّ صوت. نظر القط حوله، ولاحظ أن لدى جار هاني حمام يربيه على السطح، وكانت من الأعمال التقليدية في هذه المدينة والبعض منهم يعتبرها هواية والبعض الآخر يأخذها على محمل الجد وتصبحُ عملهُ وتجارته، وقفز القط قفزة كبيرة في الهواء وحط على شباك الغرفة المطل على الجيران، لقد أراد أن يهجم على الحَمام، وما هي إلا ردة فعل بسيطة من هاني والعصا بيده وقال: توقف. وإذا بالقط يقف جامداً متصلباً، استغرب هاني كيف تجمد القط في مكانه، ويبدو وكأنّه محنط، فسار نحوه، وقال: اللعنة، إنّها العصا، عليّ التركيز مجدداً وإعادته لطبيعته. وقال لنفسه: هل هو يتنفس؟

وتابع، حسنٌ، سأعيده سريعاً، أمسك العصا بإحكام ومن ثم أغمض هاني عينيه. وما إن فتح هاني عينيه حتى كان القط قد هجم على وجهه ويضربه كملاكم صغير. تباً، تباً، اللعنة، توقف قال هاني. ووقف القط كنمرٍ هائج، وسمع هاني صوت والدته تناديه من الطابق الأرضي: ماذا حصل؟ جاوبها هاني: لا شيء، إنّها مجرد حمامة أجفلتني. فطلب من القط أن يجلس، واستغل ما حصل بقوله: لا تتحرك هل هذا مفهوم؟ وإلا أعدت تجميدك كقطعة خشب؟ لم يكن هاني واثقاً مم قاله لتوه، لأنه لم يدرك كيف فعلها بالأصل.

فصرخ القط بحده: لا تتفوه بكلام كهذا، فهذه المرة الثانية التي تتسبب لي بالأذى. بالفعل شَعر هاني بالذنب، وتنبه لهذا الأمر وعلم أن ما يقوله القط صحيح ولكن رغم ذلك بقي حازما في مظهره ولم يضعف لكيلا يأخذ القط مجده. قال هاني بهدوء:

- عليك الحذر. في السوق ضعت عني وهنا تريد أكل الحمام، أرجو ألّا تفعل شيئا غبياً بغيابي. وأنهى كلامه، سأجلب لك الطعام. وذهب هاني باتجاه الشباك وأغلق النافذة، ومن ثم خرج من الغرفة وأحكم قفل الباب ورائه، وبقي القط وحيداً.

نزل هاني للأسفل ووضع بعضاً من اللبن الخاثر في وعاء قديم، وصعد للأعلى ووضعه للقط فتناوله وبعد أن شعر بالشبع والاسترخاء غلبه النعاس، ومن ثم عاد هاني وأغلق الغرفة، ونزل للطابق السفلي مرة أخرى لكي ينهي طعامه هو أيضاً.

- سألته والدته: بلطف وعطت سؤالها لحن رقيق تبع اسم هاني: أيْن كنت منذ الصباح؟ ماذا كان يفعل هاني؟ قالتها له كأنّه طفلها المدلل الذي يخبئ شيئاً عن والدته.
- وقال هاني بصوت جاد: كنتُ في شارع الثورة، في السوق. سألته والدته:

- هل اشتريت شيئا؟ أجاب هاني:
- لم أشترِ شيئا، أنا فقط تجولت.

- ووضع جواله وقالت والدته الجملة المعتادة: حتى على الطعام تستخدم جوالك!!
لم يكن لدى هاني إجابة، فتح تطبيق الخرائط ونظر لموقع تلك النقاط الثلاث، وكانت على شكل مثلث متساوي الساقين تماماً. لفت انتباهه هذا وقال في نفسه: هنالك احتمالين، أو ثلاثة احتمالات، إمّا البيت الرابع متواجد في منتصف المسافة بين البيتين اللذين وجدناهما في مؤخراً، أو أن البيت الرابع في زاوية مربع، أيّ لو كان هنالك مربع وهذه البيوت على رؤوسا، لكان البيت مقابلاً للبيت الأول ومناظر له بالمركز، والاحتمال الثالث أن يكون في مركز المثلث فلربما كانت تخفي شيئاً، ولكن هنالك احتمال رابع وهو أن يكون هذا البيت عشوائياً. توقف عن التفكير بهذا الأمر وتابع محادثاً نفسه في داخل عقله: لعله لدي توهم بالأشكال الهندسية، وهذا قد يكون مجرد احتمال خامس أضيفه لمجموع الاحتمالات أيضًا، ولكن أيهما هو الأقرب؟ لو كان هنالك مكان رابع؟ يجيب نفسه: على ما يبدو الاحتمال الثاني أبسطهم. كان يفكر بذلك وهو يتناول طعامه من صحنه الدائري وتذكر أن كل البيوت محاطة بحلقات تشبه حواف هذا الصحن، وهل صحيح أن البيوت الأربعة لديها حلقات؟ تخيل ذلك في عقله، مربع وعلى رؤوسه أربع حلقات، أعاد النظر للخريطة ووجد أن البيت الرابع سيكون في سوق الخضار في المدينة، وهذا سيزيد الأمر صعوبة بالتأكد. ولكن كيف لي أن أعرفه؟ قاطعه الجوع وعاود لتناول الطعام، لقد بدا له أن انشغاله بهذا الأمر ساعده على الخروج من إطار الاجترار الذهني والتفكير المستمر دون فائدة، وبعدما أنهى تناول طعامه أخذ جواله، وصعد للأعلى وأنزل القط الذي كان يتمدد بعد نوم عميق، واتجها إلى السوق.
كانت درجة الحرارة في هذا الوقت عالية جداً، ولم يكن هناك الكثير من الناس في الشوارع وفي السوق، حاول أن يهتدي بواسطة عصاه إلى المكان الذي توقع وجود الختم الرابع فيه، لربما يكون منزلا أو محلا من المحلات، ولكن البراعم كانت تتحرك بطريقة عشوائية وعلم أن هذا لا يجدي نفعا.

وفقاً للحسابات على الخريطة والموقع الدقيق الذي وصل إليه بالرسم الدقيق، وجد أن المكان يجب أن يكون هو إحدى المحلات المتجهة نحو الشرق الجنوبي، لقد كان لهاني صديق، يملك والده مكتبا للعقارات هناك، وكان صديقاً له من أيام الطفولة، وكان شاباً رياضياً ذو بنية عالية اللياقة وهو يدرس في الجامعة التربية الرياضية.

خطرت لهاني فكرة بأن يأتي ليلاً ليزور صديقه في المحل، وبعدما أن تغلق المحلات يستكشف المكان.

ذهب هاني وألقى السلام على شابٍ في المحل التجاري وكان يعمل مساعد في المحل وسأله: هل هادي هنا؟

وعلم منه أن هادي لا يتواجد إلا في المساء، لذلك ودع الشاب ولقد كان في غاية اللطف، وأخبره أنّه سيتواصل معه لاحقاً. ودعه وفي الحال أرسل رسالة لصديقه يخبره بها: أنه كان سيتواجد الليلة في المحل لكي يزوره، وكان هذا الأمر معتاد عليه فليس هنالك أشغال كثيرة ليلاً، وأيضًا هي عادة عند معظم أهل المدينة السهر والجلوس في الشوارع ليلاً بسبب انقطاع الكهرباء لفترات طويلة وهذا بسبب الحر الشديد داخل المنازل. كان جواب هادي سريعاً وأخبره أنّه سينهي تدريبه المسائي في النادي الرياضي وسوف يمر على المحل.

الفصل التاسع
استكشاف البيوت الأربعة

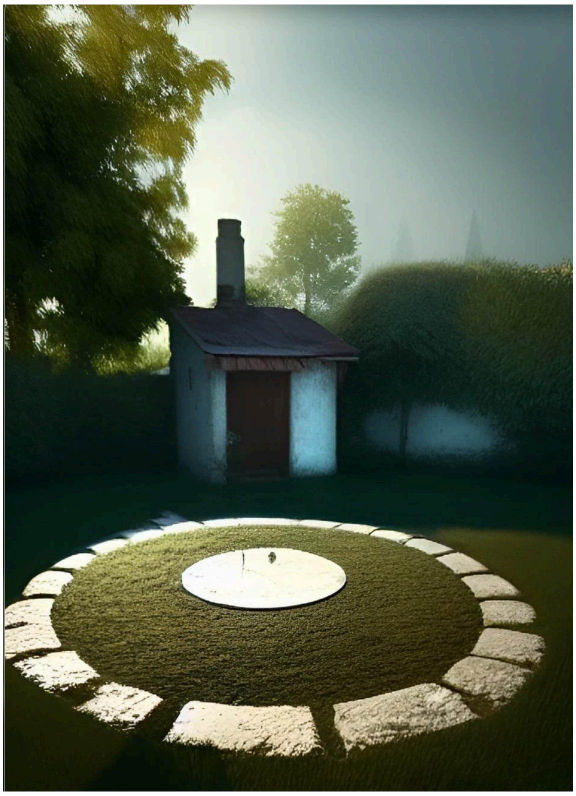
بعدما خرجَ هاني من المكتبِ اتجهَ نحو الشرقِ وكان القط يلهو ويأكلُ ما يجدهُ على الأرضِ من حشرات وبقايا طعامٍ،وقطعا سوق الخضارِ ومن ثمَ دخلا في زقاقٍ صغيرٍ كانَ فيهِ مسجدٌ يسمى "مسجدُ محمد المهدي"، وبعدها سارا معاً بشكل مستقيم محاذ للمسجد من أمام بابه، وهو يستخدم الخريطة التي على جواله ليصل إلى النقطة التالية، وهي البيت الذي كان مشيراً له على رأس المربع، ولقد كان بيتا عربيا بجانبه أشجار، حمل هاني عصاه وركز بها تماماً هذه المرة، وفكر بالشجرة لكي تدله على المكان،وبالفعلِ استجابتْ لهُ، وبدأت البراعمُ تشير له على المنزل، عندما وصل قرع جرس البيت دون تردد، فهو لم يكن مدركاً لما يفعله، وقال في نفسه خلال انتظاره: هذه الحارة لآل الخطيب[30]. وإذ يفتح الباب، قال هاني بعدما ألقى التحية على الشاب الذي خرج كان طويلاً نحيل البنية في العشرين من العمر: أنا أبحثُ عن قطي، لقد نزل عندكم في حديقة المنزل، وهذا القطُ لم أعتد أن أتركه وحيداً.

قال الشاب: وما هو شكله؟ لكي أساعدك. وصفهُ هاني بقط أسود وأطرافه بيضاء، في تلك اللحظة وهو يصف القط ببطء شديد، كانَ يمسكُ بعصاهُ خلفَ ظهرهِ وكانَ يفكرُ بالقطِ ويتخيلهُ واقفاً على الحائطِ وإذْ بالقطِ يرتفعُ في الهواءِ، ليقف على سور البيتِ. ترددَ هاني للحظة بأن يرمي القط داخل السور، ولكن الذي قاطعُه لفعلِ ذلك أن الشاب لفتَ انتباهه وجود القطِ على السور ومن ثم قفز القطُ من تلقاء نفسهِ لداخلِ المنزلِ وقال: ها هو هنا، تفضل ادخل وخذهُ. دخل هاني المنزل،

30 حيث أن المدينة كانت تتمركز بها عائلات كثيرة، و لتجمع عدد من البيوت أصحابها يحملون نفس إسم العائلة في حي واحد عندها يسمى الحي باسم العائلة هذه، ولكن هذا الحي من االحياء القديمة المؤسسة للمدينة الحديثة.

ولاحظ أثناء سيره باتجاه القط، وجود غطاءِ بئرٍ دائري حديدي ولاحظ هاني أنّه لم يكن حول البئر شيء من العشب، وكانتْ المنطقةُ الجافةُ القاحلةُ على شكلِ حلقة، فالتقطَ القطُ الغاضبُ وحملهُ بينَ ذراعيهِ وأخفى العصا . شكر هاني الشاب وسأله: هل هذه البئر فيها ماء صالحة للشرب؟ أجابه الشاب النحيل: لا، لقد جفت مياهه منذ زمن طويل، ونحن لا نستخدمه وهو مغلق منذ ذلك الحين. وتأكَّدَ هاني أنَ هذا مكانُ الحلقةِ، كانت صغيرةً جداً مقارنةٍ ببيت الساحرة فلا يوجد أعشابٌ حول البئر وباقي المنزل ينبتُ فيه العشبِ.

لدي سؤالٌ آخرُ، قال هاني:



- لماذا لا يوجد حول البئر عشب، كباقي الحديقة؟ قال الشاب مجيباً: أخبرتك أن البئر جاف، وحاولنا كثيرًا الزراعة هنا ولكن لا فائدة من هذه البقعة؛ في أسفل هذه الأرض يوجد صخر.

- وأعاد القول هاني لنفسه: صخر! مستغرباً مما سمعه.

- نعم، صخر إحتمال أن تكون آثار، قال الشاب وتابع: عندما بنى جارنا منزله أخرج من باطن الأرض أحجار بيت قديم، وكانت أسفل هذه البيوت قنوات مائية.

دائماً يُكتَشف شيء جديد أثناء حفر أساس للبيوت هنا.

شكره هاني على مساعدته وعلى هذه المعلومات وأثناء خروجه لاحظ بجانب الباب وجود تاج عمود أثريّ قديم مصنوع من حجر أزرق داكن. كانت هذه التيجان[31]

[31] تسمى جلاسيات: وهي تيجان رومانية الأصل من حجارة بازلتية.

متواجدة بكثرة في المنازل القديمة بشكل خاص، حيث أنّها تعود فعلاً لآثار نسيت في المدينة وهملت فاستعملها أهلها لتزيين بيوتهم، فتناثرت آثار المدينة بين بيوتها كأوراق الخريف.

عندما خرج تأكد هاني أن هذه هي الحلقة الأولى التي يجدها وها هو المنزل الذي تكلمت عنه الشجرة دائمة الخضرة، وشعر بالحماس وقفز القط من يده وقال له: تريد أن تربطني بحبل إذًا؟! وأنت تدعي أنني أهرب منك!

قال هاني بعدما نسي أمر تلك الكذبة البيضاء الملفقة، بخصوص هروب القط منه ونزولهِ في المنزل:

-قال هاني ممازحاً القط: لقد استفدت من وجودك اليوم، ولعلك تصبح أكثر فائدة لاحقاً. وتابع ضاحكاً. فرفع القط رأسه ومشى مهِلاً هاني ورائه. وقال هاني بصوت عال ممزوج بنكهة المرح: من هنا، تعال.

مشى حتى نهاية الشارع ووقف عند الزاوية منتظراً القط لكي يلحق به، وبعدما وصل القط متثاقلاً في مشيته رافعاً ذيله في الهواء نحو الأعلى كأنّما يتباهى بقوامه وخصيتيه البارزتان نحو الخلف، واتجها سوياً إلى الجنوب نحو المنزل التالي. قال القط:

- ما الذي استفدت منه عند دخولك ذلك البيت؟

أجابه بطريقه مستفزه وفيها بعض اللؤم:

- أنت لديك بلادة في الاستيعاب، يوجد بئر وحوله لا يوجد نبات ولا حتى عشب، ألا تستنتج أن هذا هو البيت المنشود مع بئره والحلقة؟، تابع هاني مستهزئاً: لقد نسيت، ألا تستطيع الاستنتاج؟

شعر القط بالغيظ، ومرة ثانية رفع رأسه في شموخ وقال: عليك التأكد مره ثانية، لا يكفي الكلام للاستدلال.

أجابه هاني بدون تفكير وبثقة الشباب الطائش: هو المكان الصحيح وسوف أتبع حدسي. فكر هاني بداخله ممعناً بما قاله القط، ومعترفاً بداخله أنه جاوب القط بإستهتار: أن كلام القط صحيح، فكيف لي أن أتأكد؟ ولعلَ العصى تستطيع فعل ذلك، ولكني لن أضحي بها، لعلي أستخدم شيئا ذو صلة بالنباتات، لعلي أستخدم أوراق الشجر، وأنا لا أعلم ما مدى فعالية ذلك وكيف ذلك.

وصلا لشارع الثورة وأرادا أن يقطعاه للجهة المقابلة، فمرا بجانب مسجد رضي الدين عبد الله، ومشيا محاذيان للحائط الشرقي واتجها نحو الجنوب مكملان سيرهما نحو البيت التالي، لم يستخدم هاني العصا هنا، فالمدينة وشوارعها ومخططها محفورة في عقله، ولا يمكن أن يضيع بها، خطر لهاني فكرة وقال في نفسه: لعلي أحاول أن أخرج من العصا أوراق خضراء وبها سوف أستدل على مكان الحلقة المحيطة بالبئر. واطلعَ القط على فكرته. فكانت إجابته:

- حسن سيكون ذلك أفضل من استخدامي للاستدلال على الحلقة. وسيكون أفضل لك أن تقوم بتجربتها قبل وصولك للبيت حتى تتأكد من نجاحها. قال هاني بإعجاب:

- أحسنت، التحضير مهم وعليّ اختبار فعالية الفكرة ومدى نجاحها.

وأخرج هاني العصا ولاحظ أن عدد البراعم أصبح سبعة عشر، لقد انقضى سبع ساعات منذ حديثه مع الشجرة، فكر بما أراده حيث أنه أراد اخراج 3 ورقات شجرية من العصا وإذ بها بالفعل تخرج ثلاثة أوراق. فقال له القط ممازحاً: هل تستطيع أن تخرج لي تفاحة لكي ألعب بها؟ وتابع كلامه مغيراً لهجته إلى الجدية، أنت تتحسن! وسكت.

هبطت الأوراق الثلاث دون أن تسقط على الأرض، متزنات في الهواء بشكل عمودي وملامسات الأرض بأعناقها، ركز هاني بشكل كبير وحرك إحداهن وبدأت بالاقتراب، وبقي تركيزه على الورقتين في الخلف، وطلبَ هاني مشترطا بأنْ تنقسمَ

الأوراقُ بالنصفِ عندما تتلفُ أيةَ ورقةٍ أخرى منهمْ، وأمسك هاني بإحدى الورقات ومضغها رغم طعمها المرّ، وإذ بالورقتين ترتعشان وتتنبهان إلى فقدان الورقة الثالثة وعندها انقسمتا إلى أربعة أنصاف، وقال مخاطباً القط: هكذا استدل.

رد القط قائلا: رائع، لنباشر العمل. رغم عدم فهمه لما حدث و لماذا انقسمت الأوراق ففهمه للرياضيات و الأمور الحسابية أمر محدود جداً.

حمل أنصاف الأوراق بيده إلى أن وصل للمكان المطلوب، وبقي طعم الورق المر اللاذع في فمه وقال لنفسه: لماذا لم أقم فقط بإحراقها أو تمزيقها بيدي، بعيداً عن الورقتين، ألم يكن أفضل من تناول هذا المذاق السيئ؟! وهنالك بيت عربي وكان البيت مقفلا، قال للقط: لا داعي للدخول، فأنا سأصنع أوراقا كثيرة وأجعلها تدخل وسوف نعلم إن أصابها شيء من خلال الاستدلال بما تبقى معي من أوراق، فإن كان هنالك حلقة بالداخل فسوف تتأثر بها الأوراق التي معنا، لاح هاني بالعصا أمام المنزل، وتدفق من العصا عدد كبير من الأوراق، وأمرها بدخول المنزل من أسفل الباب كالرياح وإذ بها تدخل متناثرة في حديقة المنزل، وبعدها طلب هاني من القط بالصعود إلى حائط المنزل لكي يشاهد، نفذ ذلك القط وجلس على قائمتيه الخلفيتين وقال: إنّها تنتشر ولكن الحديقة كبيرة جداً. مر وقت طويل وكان انتشار الأوراق بطيء جداً. وبعد مرور وقت طويل، بدأت الأوراق تنقسم، وقال هاني مخاطباً القط: هل لاحظت شيئا يحدث في الداخل؟



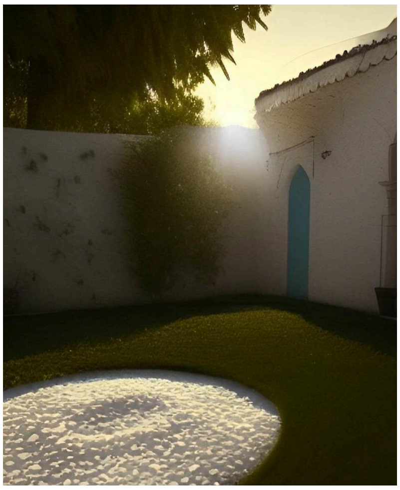
التفت القط للجهة الشرقية الجنوبية ولاحظ أن الأوراق تحترق و الأوراق بدأت بالانقسام. ووصف ما رآه وهو يقفز إلى الشارع متجهاً نحو هاني

قائلاً: إن هنالك حلقة بجانب الحائط محيطة بشيء قريب من الشارع. قال هاني: هذا جيد الآن يبدو أنه البئر وبقي واحد.

انشغل فكر هاني بالبيت التالي، ونسي أمر الاوراق، معتبرا أنهُ قدْ أبطلَ سحرهُ عنها.

أسرعا في السير للبيت التالي، متجهان غرباً نحو الحمام الأثري، ولكن الطريق لم يكن مستقيماً مثل ما سبقه من بيوت، حتى وصلا إلى سوقٍ قديمٍ جداً، وكان يحوي هذا السوق حرف يدوية، والبراعم لم تكن تشير جميعها إلا عدد قليل منها إلى داخل ذلك الشارع، وإنّما كانت تشير للجنوب أكثر واستمر هاني بالسير حتى وصل إلى المكان، حيث أنَ جميع الأبنية التي يحتويها عالية جداً، ولا يوجد مدخل أو باب إلى حديقة أو حتى شيء يوحي بالخضرة، طلب من القط مجدداً بالقفز على جدرانها، ليبلغه أن كان هنالك حديقة أو أيّ شيء يلفت الانتباه له.

عاد القط بعد هُنيّهة قصيرة جداً وقال: هناك حديقة صغيرة في الداخل، ويوجد فيها أشجار كثيرة. سُعِدَ هاني بالخبر، عندما عَرَفَ أن هُنالكَ أشجار، فطلب من القط أن يعود ويسأل الشجر إن كان هنالك بئر، وأعطاه عددا من الأوراق التي بقيت في يده، وأخبرهُ بأن يرميها في مكان الحلقة، لعل الحظ يحالفهم. وفعل القط ما طلب منه ووضع القطع في فمه وذهب باتجاه الأشجار، وبعد أن سأل أشجار "السرو" التي كانت عالية جداً وشامخة بلونها البني واستقامتها، كأشجار أعياد الميلاد، ودلتهُ على مكانٍ معينٍ، كانتْ تعلمُ كباقي الأشجارِ عما يبحثانِ عنهُ، فلقد كانت الحدث الشاغل لكل ما هو أخضر من غطاء نباتي في المدينة، حتى أن الزهور لكثرة ثرثرتها تكاد أن تخبر المارة بكل شيء، ولحسن الحظ أن الأمر لم يصبح أسوأ لغاية الآن. ذلك المكان التي دلته عليه الأشجار لم يكن بئراً أو حتى يوحي بذلك، كان في الحديقة وكانت الحجارة الأثرية وتيجان الأعمدة القديمة متناثرة في الحديقة كانت مشابهة لذلك التاج الذي كان في البيت الأول، والحشائش والطحالب متراكمة على كل شيء كأنّما



طليت تلك الحديقة باللون الأخضر، كطلاء حي سقط من وعائه وصبغ كل شيء.
وبسهولة وجد القط الحلقة، فلقد كانت هي المنطقة الوحيدة العارية تماماً من الحياة، ورمى تلك الأوراق من فمه فوقها، وإذ بها تذبل وتجف سريعاً ومن ثم تفحمت، وفي تلك اللحظة انقسمت القطع المتبقية في يد هاني مرة ثانية إلى نصفها.

عاد القط مسرعاً، وتذكر هاني في تلك اللحظات ما قالته له الشجرة في هذا الصباح، بأن عليه أن يعود إليها لتخبره بما سيفعله لاحقاً. وأيضًا تذكر ما أخبرته عنه بما يخص منطقة القنوات المائية، ولكن بالنسبة لأمر خريطة تخص هذه القنوات في هذا العام **2013** قد يبدو الأمر شبه مستحيل، فلا يوجد خريطة على تطبيق جوجل للخرائط تتحدث عن المدينة القديمة، وأيضًا تذكر ذلك الشاب في البيت الأول فهو أيضًا حدثه عن القنوات المائية والآثار المستخرجة من باطن الأرض، كان حدس هاني يخبره بأن هناك رابطا بين كل ذلك، فلابد من وجود شيء أيضًا يربط بين هذه الحلقات، فلقد تكرر ذكر نفس الشيء في عدة أماكن، من المؤكد أنّ الساحرة تستخدم سحراً يوصل بين تلك البيوت، هل من المحتمل أنّها تستخدم سحرها في تخطيط المدينة لتصنع سحرا أكبر؟ قال هاني للقط: هيا بنا إلى المكتبة فسوف أستعير بعض الكتب، فلقد مر علي هكذا أمر و قرأت عنه.
تفاجئ القط من قرار هاني:
- الآن يخطر في بالك بأن تستعير كتب، ماذا دهاك؟
- أجابه هاني:عليّ أن أبحث عن المواقع الأثرية في المدينة القديمة، فهذا ما ينقصنا، لأنه لا يوجد شيء منطقي فوق الأرض، ما نبحث عنه موجود في باطنها ولعل بعض

الكتب تتحدث عن ذلك. أعادت له هذه الفكرة حماسه، وأصبح يسير بشكل أسرع والقط يتبعه وقوائمه الصغيرة تتحرك بسرعة كبيرة حتى أصبح يهرول، أخبر هاني بأنّه لن يبقى معه طوال اليوم، فقال له: دعني أذهب وسوف تجدني قريباً من منزلك، ولا تخشى فذاكرة القطط قوية في حفظ الشوارع ولا تخيب.

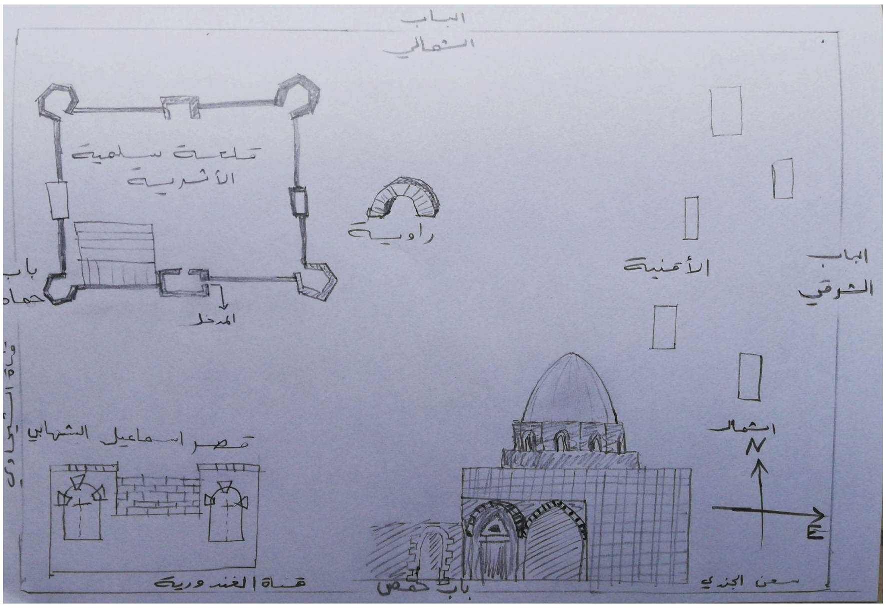
أكمل هاني طريقه وحيداً وعندما وصل للمكتبة، طلب هاني من أمين المكتبة كتب تتكلم عن مدينة سلمية القديمة، وكان هناك كتاب واحد فقط متوفر، وعدد قليل جداً من الأبحاث التي تتكلم عن القنوات المائية وآثار سلمية، لذلكَ بعدِ عملٍ شاقٍ لإيجادها اكتفى واستعارَ عددا قليلاً منها. وصل هاني للمنزل وشاهدَ القط مستلقياً على حائط منزل جاره، في ظلِ شجرةِ الليمونِ المنسدلةِ فوقَ الحائطِ كفيضٍ أوراقٍ متدفقٍ أوقفها الزمنُ فلمْ تنسكب على الرصيفِ بعد، كان القط مسترخياً فلاحظ هاني وقال له:

- سوف أنام هنا فالمكان جيد.

- لم يمانع هاني وقال: إنّه المغيب إذًا، ولكنني سأذهب لأكتشف المحل في السوق، ولربما أحتاجك.

- قالَ القطُ : ليلاً ! إنهُ أمرٌ شاقٌ عليّ جداً .

دخل هاني المنزل دون أن يجادله، وعندما أصبح في غرفته وضع كل الكتب على الطاولة، وأقفل باب الغرفة، ورفع عصاه السحرية وبحركة صغيرة بها تحولت الكتب في البدءِ أصبحتْ ذاتَ فمٍ ولسانٍ ناطقٍ وآذانٍ وأصبحَ لها يدانُ ورجلينِ وكانتْ جميعها نشيطةً حيويةً بشكلٍ مفرطٍ وبدأتْ بالقفزِ في كلِ مكانٍ في الغرفةِ، انتبهت شجرة الزيتون في الخارج لما حصل وشعرت بقوة بالقرب منها وهي تعرفها جيداً، وهي تتحرك في الغرفة، وبقيت تراقب هاني، كان سحر الخشب الذي استخدمهُ هاني على الكتب قد أيقظها من راحتها الليلية، وكان تأثير ذلك السحر على الكتب



قوياً. لوح هاني مرة أخرى بعصاه فتوقفت الكتب عن الحركة ورفعها ليعيدها للطاولة أمامه، وبدأ يسألها أيْن توجد الأقنية؟ وما هي مخططات المدينة القديمة؟ وكل ما خطر له من أسئلة تخص المدينة القديمة.

مخطط مرسوم بشكل يدوي وبسيط جداً ولا يحوي سوى مستطيلات وتسمى الأقنية، ومخطط آخر رسم المدينة القديمة والقنوات المحيطة بها، هذا كل ما توصلت إليه الكتب، وفتح هاني الكتّاب نفسه على تلك الصفحة وخاب ظنه مرة أخرى، فلم يجد شيئا ذا أهمية وقال "البحث" بصوته الرفيع: إن هذه مجرد أساطير لم تتوفر مصادرُ عن ذلكَ.

قاطعه رنين الهاتف برسالة من صديقه هادي والتي كان محتواها أن يأتي بعد ساعة من الزمن إلى المكتب. بعد ما أنهى قراءة الرسالة أعاد الكتب إلى هيئتها الأولى. وبعدها تناول العشاء ومن ثم تمدد قليلاً على سريره من كثرة التعب، ولكن قبل أن يغلبه النوم قرر أن يستقل الدراجة النارية الحمراء ذات طراز ياماها مئة، إلى محل هادي وكان هناك في المكتب، لقد وصل قبل الموعد المحدد بقليل، كان هادي يغتسل في مكان داخل المكتب فيه حمام صغير ومغسلة وكان مخفي بشكل لا يستطيع الزائر لأول مرة إلى هذا المكان أن يميزه، وهذا وفّر عليه الوقت لكيلا يذهب

للبيت والاستحمام ثم يعود ثانية، لأنَ منزله يبعد مسافةً كبيرةً عن المكتب فهو تقريبا على حدودِ الجنوبيةِ للمدينةِ، بعد أن أنهى اغتساله جلسا معاً وتسامرا. وسأله هاني عن المحل المجاور للشجرة عند الزاوية، ولقد كان المحل الذي يشير إليه هاني مغلقاً، فأجابه هادي: إنّه مغلق الآن، وهو للإيجار لماذا تسأل؟

أجابه: أُريد معاينته. ذهب هاني وبسرعة خاطفة وهو يسير باتجاه المحل أخرج عصاه ولاحظ بقاء إحدى عشر برعما فقط، وأخرج منها عددا من الأوراق وأدخلهم من دون أن يلاحظ هادي ما يفعله، قال له هادي بصوت عالي من بعيدٍ فأجفل هاني: هل تريد أن أُجهز النرجيلة؟ فوافق هاني بنعم وكان رده بصوت مرتجف.

أبقى عددا من الأوراق في يده حتى يعلم ما الذي يحدُث للأوراق داخل المحل، وما هيَ إلا ثوانٍ قليلةٌ وانقسمتْ الأوراقُ في يدهِ ، رماها وعادَ إلى المكتبِ ، فسأله هادي: ما الذي تفعله هناك؟ هل تريد استئجار المحل؟ وهو يعلم أنّه لا يمكنه، وليس لديه اهتمام في ذلك ولكن من باب الفضول، وتابع هاني: إن موقع هذا المحل جيد جداً، مطل على شارعين، ورغم أن مساحته ليست كبيرة، إلا أنّه يبدو وسيعاً من الداخل وتستطيع أن تقسم الجهة العليا منه وتصنع فيها مخزنا صغيرا، وإن أردت المتاجرة أنا أستطيع مساعدتك وأعلمك، كيف تفتح محل جوالات أو بمجالات أخرى، فهذا الموقع من السوق ينجح به كل شيء، ولكن يجب أن تكون شاطراً في العمل لم يستطع هاني الإجابة بشكل سريع و استجمع أفكاره وهو يجهز رأس النرجيلة والمعسل، ووضع هادي جمرات ثلاث على رأس نار الغاز ودخل ليملأ زجاجة النرجيلة بالماء، شعر هاني أن تدفق كل هذه الأفكار التي قالها هادي حفزته من دون أن يشعر وأن هذه الفكرة سديدة، وأصبح لديه رغبة في العمل بشكل مفاجئ، وقال هاني بصوت عالٍ قليل ليسمعه هادي في الداخل: أنا لا أستطيع أن أدفع الإيجار، ولا أستطيع شراء بضاعة الآن، فأنا أحتاج رأس مال.

قال له هادي بشكل مباشر وبصوت عالٍ أيضاً: فليساعدك والدك. أجابه هاني: عليّ طرح الفكرة أولاً، ولكن دراستي مهمة أكثر الآن.
قال هادي وهو ينظر إلى زجاجة النرجيلة حتى امتلأت بالماء كما يجب: حاول بشكل مبدأي، وإن نَجَحَ الأمر تضعُ عامِلاً يساعدك وتتركه في المحل بعد فترة، وهو يستلم البضاعة وتعطيه نسبة من الأرباح. عاد هادي ومعه الزجاجة وجلس بجانب هاني وقال متابعاً: أنت في كل الأحوال لا تعمل الآن، إن درست وعملت في الوقت ذاته ستجد كل هذا لاحقاً أمامك، فالمال والأرباح ستكون من نصيبك، وفي أسوأ الأحوال إن كنت لا تريد الاستمرار في هذا العمل، تَعرض المحل للإيجار ثانية، وإن استطعت شراء المحل فسوف يبقى لك وتستطيع تُأَجِيرَهُ أنت لغيرك. بدت أحاديثهم عن المستقبل لا تكاد تنتهي، حتى أنهكهم التعب وأغلقت جميع التجار محالهم، وبقوا على هذه الحال حتى قررا حوالي الساعة الواحدة إغلاق المحل. كان يوماً طويلاً جداً على هاني، حديث شجرة الزيتون وأيضًا حديث الشجرة دائمة الخضرة والقط واستكشافه الأماكن الأربع والذهاب للمكتبة وفي النهاية زيارة صديقه، كل هذا كان كفيلاً بعد وصوله للمنزل وبعد أن أنهكه التعب والسير لمسافات كبيرة وإرهاق فكره اليوم أن يخلد للنوم عند ملامسة رأسه الوسادة.

الفصل العاشر

كسر الحلقات

في اليومِ التالي لاستكشافِ هاني أماكن البيوتِ الأربعةِ ذهب هو والقطُ إلى الشجرة دائمة الخضرة، وأراد أن يكلمها ويخبرها عن كل شيء ولم يشعر هذه المرة بضغط كبير في الهواء بسبب اعتياده على هذا الأمر، و أثناء حديثه قاطعته الشجرة قائلة: هل تعتقد أني سوف استمع لك وأضيع الوقت الثمين الآن؟ أنا سأعلم كل شيء فور وضعي الختم الجديد على العصا، بهذه اللحظة سوف تمرر العصا لي كل الأخبار وما الذي حصل معك. أضافت الشجرة دائمة الخضرة الختم الجديد للعصا وظهرت براعم جديدة بدل القديمة وابتسمت معبرة عن فرحها. وتابعت الشجرة حديثها: إليك ما يجب فعله الآن، علينا كسر الحلقة الأكثر أهمية وهي المتواجدة في منزل الساحرة. إن استطعنا فعل ذلك، وأنا سأتكفل بالباقي أيضاً.

- كيف نستطيعُ كسرها؟ سألها هاني.

- قالت وهي تشير ملوحة بأغصانها نحو منزل يحيي والأمر سهل وفي الوقت نفسه يحتوي مخاطرة، ولكن بتجزيئ العمل سوف ننجح، وكل ما عليكم فعله هو أن تزرعوا بعض الشتلات في التراب هناك.

- قال هاني بردة فعل سريعة ونافرة: سوف تذبل وتموت.

- قالت له مُستَطرِدَة فكرتها: سوف تقوم أنت أولاً بحفر تلك المنطقة وعليك استخدام تربة حمراء لردمها، وبعدها تضع الشتلات بها، وهذه الشتلات قادرة على النمو بشكل سريع، فبهذه الطريقة نستبدل التربة المسحورة بأخرى مماثلة باللون ولكنها تكون مناسبة للزراعة. قال هاني: عليّ إذن حفر ذلك المكان اليوم.

- وقالت له الشجرة: ليس فقط أن تحفر الحفر لعمق جيد وكاف، أيضاً يجب أن يساعد ذلك الشُجيرات على النمو والوصول بجذورها لخزان الماء.
- قال هاني لنفسه: لا أستطيع دخول البيت وعلى القط مساعدتي، واثنائها شاهد هاني ما حوله ببطء شديد، حيث يمر الزمن في واقع الأمر على هاني غير مرور الزمن الحقيقي كما يدركه البشر الطبيعيون، كان باب المنزل يفتح ببطء شديد.
- قالت له الشجرة: إنّه يحيى سوف يخرج الآن من منزله، تكلم معه وعليه مساعدتنا.
- قال هاني بسرعة: هل سيكون متعاوناً؟
- قالت بسرعة أيضًا قبل أن يُفتَح الباب: لديه كل الأسباب لذلك -تابعت قولها وبدأ صوتها يَبهَت بالتدريج- وتذكر أن تطعمه أي شيء نباتي. وأثناء إنهاء كلامها كان ضغط الهواء في أذني هاني يتغير، والباب فُتِحَ الى منتصفه، وبدأ يحيى في الظهور من خلاله، وتهيئ لهاني أن الباب يفتح بشكل سريع رغم أن سرعته طبيعية ورغم ضعف يحيى جسدياً لفعل ذلك لكنها فاجأت هاني، وخرج يحيى وعاد هاني يشعر بكل شيء حوله بطبيعته البشرية ومتأقلماً معه، وتفاجأ يحيى عند رؤية هاني. أول لحظة كلام كانت محبطة لهاني، لقد خذلته حباله الصوتية التي كانت تتحرك بسرعة مع الشجرة، فكان صوته عميقاً ومتقطعاً، وبشكل لا إرادي لَّح بعيداً عن وجه يحيى وتحدث بصعوبة: صباح الخير، ها أنت ذا! حاول يحيى الرد وقال: صباح. توقف عند حرف الألف مطولاً وأفرج عن حرف الحاء، فخرجت منفصلة عن باقي الكلمة كأنها دفعة هواء خفيفة مبحوحة من حنجرة يحيى. ولم يكمل كلمة الخير، معبراً بذلك عن كُرهِهِ لكل هذا، فما أن يخرج من ذلك المنزل حتى تبدأ معاناته، ولأن كلمة صباح الخير من المفترض أن تحمل النشاط والحيوية عند قولها وسماعها إلا أنّها أغاظته في داخله لأن نطقه خذله وحتى أنّها لا تحمل له الخير بنظره. لعن في داخله هذا السحر آلاف المرات وتمنى أن يُكسَر أضعاف ذلك.
- قال له هاني بصوته الثقيل العميق المُرهَق: ها أنت خارج العمل؟

أراد أن يُخرِج بتلقائية من جيبه محفظتهُ وأثناء ذلك تذكر ما قالته الشجرة له. ادرك هاني حينها أنه إذا أعطى يحيي المال فإن البائع المتجول سوف يذهب، وسوف ينهي كل شيء خططنا له وقال: إني أدعوك إلى أن نَفطَرَ سوياً، ولنتكلم قليلاً، ما رأيك؟

- جاوبه يحيي وتوقف عند الهمزة: لست جائعاً.

أصر هاني ولكن يحيي كان أكثر تمسكاً برأيه، وأدار ظهره وشد قبضته على صندوق الولاعات ورفعها إلى صدره، وبدأت رجليه بالزحف على الأرض مع خطواته المترنحة.

شد هاني قبضته على العصا وهو ينظر ليحيي بغضب، ووجهها له وما كان من يحيي إلا أن يقف بدون حراك، صدم هاني أكثر من يحيي لما فعله، وقال في نفسه مرتعباً: إنّه بشري وليس قطًا أو ورقة شجر!

فصلة الكائنات لما يجانسها تكون أكثر تاثيراً في نفس الكائن لما يخالفها. إنّه إنسان مثل هاني وهذا ما خلق شعوراً في داخلهِ، ما بين الرغبة في التحكم فيه وبين الرغبة بالسلطة والسيطرة، إنّها رغبة التملك. بدأ هاني يدرك قوة العصا، ولم تمضِ أكثر من خمسة وعشرون ساعة على إمساكه بها. تقدم هاني نحو يحيي بخطوات سريعة حتى أصبح أمامه ونظر في عينيه مباشرة، ورفع العصا بلحظتها واسترخى جسد يحيي، وبقيت رجلاه في الأرض مثبتتين، وسقطت من يد يحيي علبة الولاعات ودفع هاني بيده اليمنى بعيداً عنه، وبدأت جدران البيوت من حولهم تماوج وتميل للذوبان والهواء حول هاني شكل سحابة من الرمال و الظلال على شكل شبح اسود حالت بينه وبين ضوء الشمس وهاني على الأرض ليس من قوة دفع يحيي وإنما خوفاً جثى على ركبتيه



المرتعشتان، وما هي إلا لحظات حتى عاد كل شيء لطبيعته، وأخذ يحي نفساً عميقاً وصدر صوت عن شهيقه كأنّه كاد أن يغرق، وعاد للسيطرة على غضبه وتنفسه، وتنهد وبانت عيناه السوداوان الصغيرتان أكثر اتساعاً تحت خصل شعره المنسدلة على جبينه الأسمر الصغير، وترقرقت عيناه بالدمع إثر ذلك.

- قال هاني متداركاً الأمر: أنا بجانبك وأنا أبحث عنك لأنقذك من لعنتك.
- صعق يحي عند سماع هذا، ومن ثم قال بصوته المتقطع: كيفَ تعلم بذلك؟ وماذا تريد؟ هل أنت ساحر؟

وفي تلك اللحظات تقدم القط إلى جانب هاني وجلس على قوائمه الخلفية.

- قال هاني بحماس شديد وبعزيمة: علينا أن نكسر السحر وأن ننقذ كل الطرابيش وذلك الختم الموجود على قبر والدك. قالها محاولاً أن يحرك شيئا في داخل يحي.

أعاد هاني الذكريات إلى يحي، تلك اللحظات التي تجلت فيها الحقيقة أمام عينيه من قبل الساحرة، ويوم رؤيته للطرابيش أول مرة، وتناوله الثمرة، زادت كلمات هاني لهيب النيران في داخل يحي، فهي التي تحيط به بقيودها وتزيد احراقاً بمعصميه، وفي غايتها أن تذيب حديد القيود ولكنها تذيب جسده عشرات المرات في اليوم، ولا يستطيع أن يخرج معصميه منها، فلا يفتح الحديد إلا الحديد، ولا يكسر القيد إلا الكلمة، فهي المسبب وفيها الخلاص. تغيرت لهجة مخاطبة يحي لهاني وأصبح جدياً بشكلٍ غير متوقع، قال له وكأنه يبعد هاني عن جانب حياته الأكثر ظلاماً وسوداوية، فهذا المكان هو الأكثر هشاشة في نفسه: أنت لا تستطيع أن توقف ذلك.

- قال هاني: لقد عددنا لذلك وأنا لست وحدي ولكنني أحتاج مساعدتك.

أراد أن يعرف المزيد رغم شكه المتزايد فيما سمعه ووافق للذهاب مع هاني، بعدما علم أن هاني لديه ما يخفيه و يعلم عن خفايا حياته فهذا الأمر دفعه لإستكشاف ما يخططون له فاحتمال أن تكون مكيدة يحيكون لها ضده وضد والدته. ذهب هاني و

يحيي معاً للسوق، ودخلا مطعماً شعبياً، طلب هاني أن تكون الخضار أكثر، فقال له البائع: سوف يكون سعر السندويش أغلى قليلاً.

لم يمانع هاني ودفع المال، وأخذ كل واحد منهما واحدة وبقي القط منتظراً خارجاً، وقال يحيي بعدما وجد فيها الكثير من الخضار: أنا لا أحبها مع الخضار.

إن الشجرة لم تكمل لهاني سبب طلبها بأن عليه أكل النباتات ولكنها قالت لكي تساعده فقط. وهو يفعل ما تدلي به الشجرة فقط. قال هاني وهو يجلس على الطاولة واضعاً كلتا يديه عليها: كيف تستطيع بلع السندويش إذاً؟

- أجابه يحيي بتردد: إنّها تسبب ألماً و صداعا في الرأس.
- قال هاني لنفسه لعل السحر هو السبب، فهو مصنوع من النباتات وطبعًا هو ليس بحاجة طعام أيضًا، فلماذا يتردد؟!
- مد أطراف أصابعه لجيبه ولامس عصاه، ونظر إلى القط وبدون أن يحرك هاني شفاههُ فقط قال بداخله: ماذا عليّ أن أفعل؟ لم تخبرني الشجرة بالسبب.

رفع القط رأسه وهو مستلقٍ وبدأت أذناه تتحركان في جميع الاتجاهات باحثة عن مصدر الصوت، أصدر مواء ولم يفهم منه هاني. أغلق القط فمه ونهض على قوائمه الأربعة مصدوماً وهو يحملق في هاني، وعندها سمع هاني كلمات القط التي تبدو بعيدة جداً: أجبره على تناولها. وأبقى هاني أصابعه على العصا وحاول التحكم بتصرفات يحيي ليجبره على تناول السندويش، وما هي إلا لحظة وفُتِحَ فم يحيي ورفع السندويش بكلتى يديهِ ووضعها بفمهِ، نظر إلى هاني بغضب و حنقه وبدأ يحيي في ادخال الطعام إلى جوفه عنوة، حتى أنهى أكل السندويش. غمز هاني له، وبدأ بالضحك بصوت خفيض، وشعر يحيي بآلام حادة في رأسه وشعر بالحقد مما زاد الأمر سوءاً، فإن جانبه السوداوي بدأ بالظهور عليه مرة أخرى، وحاول هاني تهدئته ومسك يحيي من يده وقال له: لا تحاول فعل هذا هنا.

وفي هذه اللحظات كانت الشجرة دائمة الخضرة تراقب المنزل وشاهدت طربوشا يجري بشكل هستيري داخله دون توقف، وبدأ بالاصطدام في الجدران ويبدو أنه فقد السيطرة على المنزل. الساحرة عندما انتبهت لتصرفات طربوش الغير إعتيادية، رفعت عن زنديها وشكلت طرف ثوبها وبدأت بالجري وراءه أيضا كانت سيقانها النحيلة تحملها بخفه كأنها دجاجة تجري في الحظيرة وترفرف بجناحيها، انقضى وقت قصير ولم تستطع إمساكه ولا السيطرة على المنزل، فبدأ البيت ينهار جزئياً من الداخل.

شعر هاني بتغير ضغط الهواء في أذنيه بشكل مفاجئ وهو يتناول السندويش، وتراءى لهاني في مخيلته بيت العجوز وهي تسعى للإمساك بطربوش، كانت شجرة تخاطر عقله لكي يدرك ما يحصل، سمع صوت الشجرة يقول له: هل أطعمته النباتات ؟ فأجابها بدون تحريك شفتيه: نعم. فتابعت: عليك الإسراع قبل أن ينتهي مفعولها وعليك التحدث وإلا علمت الساحرة بالأمر، وأصبح يحيى الآن مفصولا بشكل مؤقت عن رابط ختم المنزل.

قال هاني: اسمع، أُريد منك أن تساعدني بكسر الحلقة الموجودة حول المنزل لكي نستطيع كسر السحر هناك. خف مفعول السحر وأصبح يحيى طليق اللسان وقال: هنالك باب القبو وهو مقفل بختم، وأيضًا أولئك الطرابيش هم جيشها، فعليك الحذر. فعاد هاني للزمن الطبيعي وزال ضغط الهواء عن أذنيه.

أسرع هاني في حديثه وهو يبتسم عاكساً شعوره الممزوج بالحمس و السعادة لسماع يحيى يتكلم بطلاقة، وقال: مهمتنا أن نتولى أمر الحلقة الخارجية الآن فقط، والشجرة ستتكفل بالباقي.

- أي شجرة؟ سأل يحيى.
- أجابه هاني: لا تسأل، هل سوف تتعاون؟

- قال يحيي: نعم. وهو يتألم بشكل كبير وضغط بأصابعه على جانبي رأسه وأصدر صوت أنين قوي، ولاحظ المتواجدون في المطعم ما يحصل، فسأله صاحب المطعم: هل من خطب؟
- أجابه هاني عوضاً عن يحيي: لا عليك، إن هذا يحدث له بالعادة، إنّها الشقيقة، وقال ذلك بعفوية.
- قال يحيي وهو يكز على أسنانه وبعدما أزاح أصابعه عن جبينه: رغم أن هذا يتنافى عما قلته، لأن الخضار تخفف الصداع ولا تسببه. وعندها تناول كأس الماء وشرب منه، أغشي عليه للحظة وسقط رأسه على الطاولة وسمع صدمة رأسه على الطاولة كحجر سقط عليها، ففزع الزبائن، وصاحب المحل قال: سوف أتصل بالإسعاف؟
- وسرعان ما رفع يحيي رأسه وبهدوء تام قال رافعاً يديه اليمنى: لا تتصل أنا بخير. قالها بصوت متقطع ولكن مفهوم. وهو ينهض من كرسيه اقترب من هاني وهمس له: لا تستعمل سحرك عَلَيّ مرة أخرى فأنت تريد ثقتي، هل تفهم؟
- ضحك هاني قليلاً واعتذر عن ذلك، وقال: لم أكن أتصور حدوث هذا ولم يكن لدي خيار آخر، ولا تعتمد على مبتدأ مثلي. قال يحيي: إذًا كان من الممكن أن تقتلني اختناقاً في الطعام أيها الغبي.



بعد لحاق الطربوش من قبل الساحرة أمسكته ورفعت طربوشه ونظرت بداخلها، لم يكن هناك صورة واضحة ليحيي، وعندما خرج من المطعم كان السحر قد عاد

لطبيعته ورأت يحيى مع شاب آخر، لم تكنّ ملامحهُ واضحةً لها ، وكانَ يظهرُ طاقةً كبيرةً أشعرتها بالقلقِ فلمْ تكنْ صورتهُ جليةً كباقي الناس منْ حولِهِ. كانت قوة سحر الشجرة لها تأثير واضح على هاني وعلى مظهره، وظهر القط بجانبه ولفت انتباهها ذلك، ولكن لم تبالِ به ولم تدقق النظر كثيرًا، رغم أن الشك راودها للحظة بأن القط مألوفٌ لها. أعادت بقسوة وضع الطربوش على رأس "طربوش"، حتى التصقت حوافه بالأرض ودخل كل جسد طربوش، وأخرج نفسه من القبعة بصعوبة وهو يتدحرج على الأرض وارتطم بجدار الغرفة، ومن ثم خرج كالفلينة من عنق الزجاجة، ورغم أنّه لم يقر[32]، ولكن ظرافته كانت توهم من يشاهده بأن هنالك أصوات وموسيقى في حركته تجعلك تنساب في مشاهدته كأنها من زمن الأفلام الصامتة.

بعدما خرج هاني ويحيى و تبعهما القط قال يحيى بثقل: أنا لم أعد أستطيع مساعدتك اليوم، وبالكاد أستطيع أن أكمل يومي، فأنا تقريباً بنصف جسد والآن أصبحت أضعف بعد هذه الوعكة. قال هاني متفهماً: لا عليك أكمل طريقك، سوف أكون في انتظارك. ودع كل منهما الآخر، وتابع يحيى سيره في السوق ليقوم بعمله اليومي، وأخذ هاني طريقه مع القط نحو الشجرة دائمة الخضرة. فقال هاني للقط: هل تعلم ما الذي ستفعله يا قطي العزيز؟ خفض القط جفنيه قليلاً وهو ينظر له وأصبحت ملامحه توحي بالملل من سماع نبرة حديث هاني، وتابع هاني: عليك أن تباشر بالحفر في حديقة المنزل. توقف القط ونظر لهاني نظرة شريرة وقال: - عن ماذا تتكلم؟ هل أنت مدرك ما نوعية الحفر التي نريدها؟ أجابه هاني: لن تكون لوحدك. ما عليك فعله هو أن تدعو أصدقاءك القطط، وأن تبدأ في ذلك حالاً، هيا اذهب.

كانت ردة فعل القط سريعة هذه المرة ولم يعارض، قال هاني بصوت عالٍ مناديا القط: هل أثق بك إذًا؟ لم يجاوبهُ القط وتابع جريه وقفز على الجدران.

---

32 - يقر: صوت خروج السدادة من عنق الزجاجة.

ذهب القط لجميع أماكن تجمع القطط (الحاويات والبازارات وسوق الأغنام ومحلات الجزارين والمساجد والجوامع) حتى تكلم مع عشرين قط ووافق فقط أربعة عشر منهم، كان يرغبهم بوجبات كبيرة من اللبن واللحوم وإلى ما هنالك.

بعدما وصل هانى الى الشجرة دائمة الخضرة تحدث هاني معها لوقت طويل، واتفقوا على خطوات سيتم تنفيذها اليوم، وحتى أصبح وقت الظهيرة كان هاني يتجول في الساحة الغربية من الحي القريبة منزل يحيى، حتى لا يثير الشك بأصحاب الحي، ولكن عند قدوم القطط جميعها معاً، شعر بخيبة أمل وغضب شديد لا مبرر له سوى غباء انجاز هذا الموقف، وصرخ في وجه القط: ماذا تفعل؟ هل أنت في مظاهرة أم هذا مهرجان للقطط؟

ما كان من القطط عند سماع صراخ هاني إلا أن تفترق، رفع هاني عصاه ولوح بها باتجاههم فتوقفوا في أماكنهم، إلا قطه الأسود، وقال له هاني غاضبا: قم بأخبارهم أن يتوجهوا نحو المنزل فرادى وليسوا مجتمعين.

نفذت القطط كلام هاني وإرشادات القط وانتشرت بالحي وقال هاني: أحسنت صنعاً. فرد عليه القط: كان الأمر شاقًا أن تقنع كل هذه الأعداد بالمجيء فعليك أن تتصور كم من القطط دعوت ورفضت، وهنالك أمر آخر، توقف عن مخاطبة القطط عن طريقي، فلقد فهمت هي ما قلته لها، ولكن في حال واجهت صعوبة في ذلك أُترُكْ الأمر لي. قال هاني: لم أسألك عن اسمك حتى الآن؟

لم يكترث لذلك القط وتابعَ قفزته الرشيقة وأكمل ما طلب منه هاني. اجتمعوا جميعاً أمام الشجرة ودخل هاني آخرهم، وتأكد من خلو الزقاق من أيّ شخص. وعندها هبت ريحٌ وشعر الجميع بضغط الهواء بشكل مفاجئ وهائل.

بدأت الشجرة الدائمة الخضرة بالحديث وقالت بحزم: اليوم سوف نبدأ. عليكم جميعاً أن تقوموا بجمع التراب في أكياس، ومن ثم ضعوها هنا بجانبي، وأنا سأقوم بإخفائها

ب عن النظر أوراقي. وبعد ذلك سوف تحفرون بخط مستقيم خلف المنزل، من خلال زاوية رؤية معدومة في الشمال الشرقي للمنزل، وهي أقصر مسافة بين الحائط والحلقة، سوف يضمن ذلك لكم ألّا تلاحظكم الساحرة العجوز لفترة طويلة، وأيضًا يجب أن يتم حفرها بسرعة وبعد هذه الخطوة تنقلون أكياس التراب بأفواهكم وتفرغونها بالحفرة، وبعدها تغرسون شتلات سوف أعطيكم إيّاها في الوقت المناسب، وسوف نكون قد كسرنا الحلقة فور نمو الأشجار. سأل القط: هل سوف تشعر الساحرة بذلك عندما تكسر الحلقة؟ أجابت الشجرة دائمة الخضرة: الحلقة ليست متصلة بختم المنزل، هي للحماية فقط من أي خطر أو سحر يحدق بالبيت.

سأل هاني: كم ستغرق نمو الشجر، سنوات أم أشهر. قالت الشجرة: اترك الامر لقوتي و المياه المسحورة.بدأ الجميع بتنفيذ الخطة وذهب هاني ومعه القطط إلى منطقة بجانب الطريق العام الذي يسمى المحلق الجنوبي وكانت خالية من السكن و المباني، وحفرا في التراب وطلب من القطط أن تساعده، فأخذ معه دراجته النارية ووضع الأكياس على جانبي الدراجة محملاً إيّاها في الخارج.

في حلول المغيب تم الأمر بدقة وإتقان، وعندما وصلوا إلى المرحلة النهائية وخروجهم لكي يجلبوا الشتلات من الشجرة الدائمة الخضرة، كان الطربوش قد لاحظ وجودهم، في لحظة خاطفة هاجمه القط الأسود، وسحبه فوق الحلقة واعتقد حينها طربوش أنّها نهايته، وأنّه سوف يحترق فوق هذه الأرض ولكنها كانت صدمة بأن لم يحصل شيء له وبقي سليماً، وتم سحبه للخارج بمساعدة باقي القطط، وكانت الشجرة وهاني ينظران باستغراب شديد لما صنعته القطط، وبدأ مباشرة البيت بالاهتزاز وهرعت العجوز اللي تبحث عن سبب ذلك ولم تلاحظ وجود طربوش وبدأت بالبحث في أرجاء المكان، معتقدة أنّه قد لامس الحلقة. غضبت الشجرة لما فعلته القطط، وحاولت أن تؤثر الشجرة بطريقة ما على طربوش ولكنها لم تفلح، لأن الساحرة قد نزعت منه الإرادة وهو فقط يبدو بلا روح أمامها وفي تلك اللحظات

يدخل يحيى الزقاق في موعد عودته للمنزل، لم يعد يحيى يستغرب أيّ شيء من تواجد هاني أو القطط أو أيّ شيء، ولكن شعر بالاختناق عندما رأى طربوش خارج المنزل، كأنّما قطع عنه الأكسجين، إنّه الوعاء الذي ينقل له الطاقة وهو مسير المنزل بدونه لن يستطيع البقاء حياً، لاحظت الشجرة أن يحيى واهن ويكاد أن ينهار، عزَم يحيى وشحذ ما تبقى من طاقته وركض باتجاه الجمع وأمسك طربوشا وسحبه من بين مخالب القطط جميها، ودخل مسرعاً الى المنزل وبلحظة عاد لجسمه الطبيعي ورمى الطربوش (الذي تقلص حجمه وأصبح أصغر من الطربوش نفسه) من خلال الباب المفتوح وتنبهت الساحرة لدخول يحيى وتوقف المنزل عن الاهتزاز، وعقدت حاجبيها غضباً، وهي تحدق بيحيى، كان يحيى يتنفس بصعوبة وهو يدخل المنزل بسرعة، ولم يتكلم بحرف واحد، دخلت خلفه الساحرة التي كانت متشوقة لتعرف ما حصل معه ومع من كان يتكلم اليوم، ورفعتْ ثوبها، وبدأتْ بالسيرِ السريعِ وراءهُ كالدجاجةِ التي تنقرُ حبوبَ القمحِ وكأنهُ إحداها وهيَ تقرقرْ خلفهُ. لم يجبها يحيى بأيّ حال، كان متعبا جداً ولكنه كان ينتظرها أن تهدأ حتى يعاود الخروج، مر وقت طويل وكان بين الفينة و الأخرى ينظر من خلال نوافذ المنزل للخارج مراراً وهو لا يلاحظ أيّة حركة تذكر. شاهد يحيى "طربوش" المختفي تحت طربوشه منهك القوى خائفا مما تعرض له، قالت الساحرة بعد وقت طويل من المسائلة وعدم إجابة، فجرت غضبها صارخة بصوت عال موجهة كلامها : تكلم معي!! ورغم ذلك لم يرد عليها ولم يؤتي أي ردة فعل تُذكَر.

وذهبت غاضبة نحو القبو، أرادت التأكد إن كان هنالك خطب ما هناك، كانت لحظة مؤاتية له أن يخرج لهاني ويتكلم معه، فخرج مسرعاً كان بطاقته الجسمانية كاملة وفي شكله الطبيعي بكامل قواه وطلاقة لسانه، وعندما فتح الباب شعر بضغط الهواء الذي تصنعه الشجرة دائمة الخضرة وكانت القطط تقفز في الهواء وعلى الأرض

والأسطح فرآها يحيى كأنها تحلق ببطئ، وقال بحماس ورهبة ولكن هذه المرة الكلام كان الهواء ثقيلاً حقاً، ويبدو صوته كتموج بطيء: إذًا كسرتم الحلقة؟!
وقالت الشجرة بسعادة وبلحظة نصر لانضمام يحيى الى جانبهم: أولاً سوف نستخدم التخاطر في الحديث فإن الأمر الآن يحتاج وقتا أقصر من المعتاد لكيلا نهدر وقتنا في الكلام، والهواء أصبح أكثر كثافة بسبب الضغط الزمني، وتابعت مجيبة هاني، نحن نريد كسر الختم الموجود في القبر، أمّا الحلقة فلقد انتهينا من أمرها.
قال في داخله و بذهول لمعرفتهم ذلك: قبر والدي! فأجابته الشجرة: نعم، نحن نسمعك. وصمت قليلاً يحيى ثم تابع الكلام في داخله وهو يخاطبهم: إنّه مختوم أيضاً.
قالت الشجرة دائمة الخضرة: ما نريده هو أن نكسر الختم.
قال يحيى متفائلاً: إذًا سوف أستعيد جسدي وقدرتي. وتابع: إن هذا الطربوش مجرد خشب وجزء مني ومن طاقتي، إذا استطعت كسر ختمه وختم القبر، سوف نستطيع أيضًا تحرير الطرابيش البقية وكسر اللعنة و.. فقاطعه هاني عند سماعه ذلك بعفوية: ماذا؟ وتابع يحيى: هناك ختم آخر موجود على باب القبو، وهنا تكمن المشكلة بصعوبة فتح الباب والدخول. قالت الشجرة بتوتر: هذه مهمتي الآن فنحن لن ندخل بل سوف نبقي الباب مغلقا فإن جذوري وجذور الأشجار تستطيع الوصول للقبو بعد كسر الحلقة، وما نحتاجه أن نزرع الشتلات لكي تنمو وتصبح أشجارا، لكي نستطيع تدمير ختم القبر والقبر نفسه. قال يحيى بعصبية زائدة: دائما تستسهلينَ الأمر وتصغرينهْ ، لقد تكلم عن تحرير الطرابيش، ألم تسمعي ما قاله الآن؟ أجابه يحيى: اهدأ قليلاً، إنّهم يتبعون لأناس آخرين أيضاً ولكن ما قصة نمو الأشجار؟ قال هاني ناظراً نحو الأسفل: اترك امرها للشجرة التي تعلمت السحر و تابع هاني: وهل هناك مخاطرة في هذه العملية؟ قالت الشجرة: لربما تم استخدام الطرابيش ضدنا، فلا أستبعد أن تفعل الساحرة ذلك.

تجهم وجه يحيى عند سماع كلمة ساحرة وقال: وانتي أيضاً ساحرة؟! وعلقت الشجرة: عفواً لقولي ووصفها بالساحرة هكذا ولكن هذا عملها حقاً، نعم لقد تعلمت السحر. وتابعت: علينا التروي قليلاً، وعلى القطط وأنتم أن تزرعوا الشتلات، ولكن في البيوت الأربع التي في المدينة.

واعطتهم إيّاها وقال يحيى: وجدتم البيوت؟! وتابع: يبدو أنكم وضعتم الخطة و ليس لدي دور سوى التنفيذ، حسناً سوف أدخل الآن لكيلا يلاحظ طربوش ووالدتي الأمر. كانت ما تزال القطط عائمة في الهواء وفي الأرض وعلى الأسطح، وقالت الشجرة ليحيي: ما عليك فعله هو أن تخفي الخط الترابي الذي صنعناه، وسوف نعود لاحقاً نجتمع عندما ينهي هاني مهمتهُ.

وحتى هذه اللحظة لم يُبدِ هاني اعتراضا على تغيير الخطة، فبعد سماعه عن الطرابيش الأخرى زادت رهبته، وعاد ضغط الهواء لطبيعته، وجميع القطط التي كانت معلقة في الهواء تابعت حركتها بتسارع متزايد بطيء، البعض منهم هبط للأرض على قوامه الأربع، والآخر يحاول الإمساك بقط آخر، وتفجر الواقع بحركاتهم المتسارعة وبضوضائهم كنبع من النشاط المتوهج بالحياة، حتى بدا للجميع أن الزمن عاد بالنسبة لهم طبيعياً، وبالمقابل كانت تحركاتهم بالنسبة للقطط أكثر غرابة كانوا يتحركون بسرعة فائقة، وعندها هاني حمل عصاه وأمر جميع القطط بأن تتبعه لتناول وجبة طعام. وذهب يحيي إلى منزله ودخل غرفته الكئيبة بجدرانها الرمادية قبل خروج والدته من القبو، ومباشره خلد للنوم، كان يعلم أن والدته لن توقظه، وعند خروجها من القبو كان طربوش عند الباب، التفتت نحوه وأخفى نفسه بالقبعة، أمسكت به ولاحظت أنّه أصغر من حجمه المعتاد، سألته: ما الذي حدث لك؟ فرقعت اصابعها أمام وجهه حتى استفاق و ادخلت في فمه بعض قطرات من المياه المسحورة بواسطة قطرة صغيرة واستعاد نشاطه.

وبعدها أصبحَ نظرا حيويا مبتسما فبادلتهُ بابتسامةٍ أنجلتهُ أكثرُ منْ أنها أرعبتهُ، فأمرته بأن يدير المطبخ وأشعلت النار، وحضرتْ العشاءَ لثلاثتهمْ. كانت الساحرة قلقة ولكنها مفعمة بالحيوية، كان أمر إخفاء يحي عنها شيء ما، يشعرها بشيء من شعور الأمومة أن ابنها أصبح لديه حياته الخاصة، ولكن كان وجود تلك الطاقة الغريبة في مرافقة أحد ما ظهر بالطربوش هو ما أثار قلقها وخوفها، مخفية ذلك قلقها وراء ابتسامتها.

أما هاني والقطط فكانوا مشغولين، لقد اشترى لهم الكثير من الطعام ومن سمك السردين[33]، ولقد امتلأت بطونهم وأراد منهم هاني والقط الأسود أن يكونوا أكثر طاعة، وقال هاني للقط: يا أبيض القدمين، هل تعلم أن أسمك (**Snowshoe**)[34]؟

قال القط: ماذا؟

قال هاني: لا عليك، ولكن تعني التسمية حذاء الثلج.

قال القط مغطاظاً غاضباً: حذاء! هل تنعتني بالحذاء؟

قال هاني: ليس هكذا، إنّها تسمية فقط كصفة كما هي أطرافك، وأيضًا الحصان يسمى مُحجل الأربع[35] إن كان يتصف مثلك.

قال القط: وما أهمية ذلك؟ فنحن القطط لا نلقب بعضنا ولا نطلق لبعضنا أسماء.

قال هاني ممازحاً القط: كم أنت عنيد.

قال القط باستهتار: تماماً أنا عنيد.

قال هاني: تماماً اسمك صفتك، أنت عنيد.

أجابه القط: لا يهمني الأمر، ناديني بالاسم الذي تريده، فهذا لا يعني شيئا بالنسبة للقطط.

---

[33] الذي يعترب أقلّ خطورة من إطعامهم التونة التي تحتوي نسبة عالية من الزئبق.

[34] Snowshoe : هكذا يطلق عليه في أمريكا.

[35] الحصان ذو القوائم البيضاء.

قال هاني: الاسم مهم جداً، فبه نميز بعضنا البعض بالمناداة - قاطعهُ القطُ بموائهِ وكانَ أشبهَ بالتثاؤبِ - مستمرا هاني بما يقوله- وهل سمعت بقصة (ساحة الأبكم)؟

لم أسمع. جاوبه القط وتابع: ما هذه، هل تتكلم عن القطط أيضاً؟

حدثه هاني بدون إجابة أو اهتمام لنرجسية القط:

في زمن الترحال على الجمال والبغال، وفي إحدى القوافل التي كانت تعبر الصحاري والجبال، كان هنالك شاب أبكم، أيّ يسمع ولكنه لا يستطيع أن يتكلم، وهذا الشاب ذو موهبة كبيرة في الفن والنحت والبناء ولديه حسن التدبير ومن يعرفه يكن له الاحترام. وفي إحدى الليالي الهوجاء أثناء ترحالهم، ضربت عاصفة شديدة المنطقة التي كانوا مخيمين بها، فأغشت نظرهم، وقرروا المبيت في ذلك المكان حتى يتدبروا أمرهم، ولأنهم قرروا التحرك بعد هدوء العاصفة وقبل بزوغ الشمس بقليل جهزوا أنفسهم وأعدوا البغال والجمال وأمتعتهم، وشدوا الرحيل في طريق القوافل متابعين سيرهم، ووصلوا إلى المدينة التالية، لكن الشاب الأبكم لم يسمعهم ولم يكن له رفيق في السفر يفتقده، ولأن لا أحد تذكره في ذلك المسير، لم يوقظه أحد ولم يكمل المسير معهم، ولعل ضوء الفجر الخافت الذي بزغ بعد رحيلهم لم يساعدهم لكي يلاحظوا بقاء أحد الخيم وراءهم، واستيقظ الأبكم على حماوة وسخونة الهواء، الذي هو كشعلة نار من أثر ضوء الشمس الضارب في الخيمة، أخرج الأبكم رأسه من الخيمة، وعندما لم يجد الخيم الباقية في المكان اعتقد أن العاصفة قد ردمتها جميعاً، أو أنّها قد اقتلعتها من مكانها، وشعر بالخوف بعدما تغيرت ملامح المكان عن البارحة من جراء العاصفة الهوجاء، ولكن حتى استوعب الأمر وعاد لرشده وأصبح متيقناً لواقعه وهروبه من عالم الأحلام، قد أدرك أن الجميع قد رحل، فلا أثر لأقدامهم ولا خيل ولا روث ولا إشارة ولا غبار، كأنّه يغرق في بحر من الرمال التي على مد النظر في هذه الصحراء الجافة والخالية وما من مرشد ولا خريطة، كأنّما قطعت

أوصاله ورمي في اللامكان، ولأن غريزة البقاء دفعته للمتابعة والبحث عن نجاته، تابع السير إلى أن وصل إلى مدينة ولكن ليست نفس المدينة التي وصلت لها القافلة، وعندما دخل إليها قابل بعض سكانها وحاولوا الكلام معه، ولكن لغتهم كانت غريبة عليه، فلم يستطع أن يفهم عليهم ما يقولونه، وفقط أشار بيديه لكي يعلموا أنّه لا يستطيع الكلام. سألوه عن اسمه وأشاروا له بيديهم، من أنت؟ فلم يُجِد التعبير، فعلموا على الفور أنّه أخرس وغريب عن هذه البلاد.

قدموا الطعام له والمأوى، و بعد فترة راحة لاحظ الأبكم أنّهم يستخدمون الطوب في بنائهم وأدواتهم في العيش، فأشار لهم أن يعطوه من الطوب، فبنى لهم في اليوم الأول تمثالاً لرجل وكان يقارب الحقيقة في هيئته وفي دقة تفاصيله، وفي اليوم الثاني زين لهم منازلهم، وفي اليوم الثالث أضاف لهم نافورة ماء للساحة، وأصبحت مدينتهم بعد شهر تحفة معمارية بلمسة فنان، وقدموا له المال والطعام مُقابِلَ عمله، وجنى مالاً كثيرًا من بيع تحفه وتعليم أبناء المدينة هذه الحرفة وفن النحت والزخرفة ومن تجارته من مرور القوافل التجارية وازدهرت المدينة سياحياً واقتصادياً، حتى ذاع صيتهم خلال فترة قصيرة جداً، وأصبحت الكثير من القوافل تمر من خلال مدينتهم للاستراحة وللتجارة. وكانت معاملة أهل المدينة له جيدة، وفي أحد الأيام مرت على المدينة قافلة وكان زعيمها هو نفسه زعيم القافلة التي تاه عنها الأبكم، لقد عرفه من هيئته التي لم تزاح من ذاكرته طوال تلك المدة، ولكن بعدما أصبحت حالة أفضل حال لم يعد حاقداً عليه، فقابلهُ وبالفعل كانت بالنسبة له فرحة كبيرة، فلقد تسبب له هذا الخطأ بحزن شديد، فأشار له الأبكم بأنّه يريد العودة إلى بلده فإنه اكتفى من كل هذه الغربة ولقد جنى مالاً كثير يكفيه ليعيش حياة مستقرة مع عمل جيد، وبالفعل ذهب مع القافلة بعدما أخذ ثروته. وعندما علم أهل المدينة بذلك تملكهم حزن شديد لرحيله، ولكنهم كانوا في داخلهم فرحين لأنه وجد طريق عودته.

أصبحت المدينة أجمل من سابق عهدها وأفضل حالا، وأكثر يسرا في عمل قاطنيه، لقد صنع لهم أدوات تسهل عليهم العمل اليومي لم تكن موجودة سابقاً، وبقي التمثال الذي صنعه في اليوم الأول شاهداً على ذكراه. وضعوا التمثال بجانب النافورة التي صنعها في اليوم الثالث في الساحة، وأسموها ساحة الأبكم، ولم يعلموا اسمه قط.

قال القط وقد أنهى طعامه: هل ترى أعمالنا أفضل خيراً من أسمائنا؟ أجابهُ هاني: لو لم يكن لنا أسماء، لفقدت الكثير من الأمثلة التي يحتذى بها في العالم وضاعت، فكل اسم يعطى لكل شخص جديد يُعطِينا مثالاً عنه، فهو يعطي الأمل في تلك المرحلة التي هو فيها ولمن يعايشه حينها، ولسوف يترك اسمه مثال للأجيال التالية، وعندما نفقد الاسم سوف تماهى الشخصيات فيما بينها، ولكي نوثق ما مرت به هذه الشخصية في حياتها، من ظروف جعلت منه ذلك الشخص الذي يقوم بتلك الأفعال، وهذا مهم من ناحية المنشأ والتربية والمصاعب وكل ما يحيط بذلك الشخص، فالاسم هو عنوان أكثر من أنّه بضعة أحرف تقال معاً أو فرادى،إنها تحملُ كلَ ما اختزنتهُ في هذا الاسمِ لسنواتٍ، وإن قمت بتغيير اسمك فسوف تبقى أنت وجوهرك نفسه ولكن العنوان تغير للوصول إليك لا أكثر.

قال القط منتشياً: ذلك كله لإعطائي اسما، قلت لك سابقاً سمني ما شئت، وتابع، كان أهون علي من سماع ذلك. قالَ هاني بعفوية: لك ذلك يا صديق.

لامس القط شواربه بيديه وهو يلحس بلسانه ما تبقى من زيوت التصقت بوجهه وقال: هذا أفضلها.

ماذا؟ قالها هاني باستغراب، وصمت قليلاً.

صديق، قال القط. ابتسم هاني وقال:

إذًا ترغب بأن يكون اسمك صديق. وتابع هاني: اجمع القطط قبل أن يغدر بهم النعاس و يغفون يا صديق، فأمامنا عملٌ كثير اليوم.
نخرج صديق مع أقرانه وكونهم يسيرون بسرعة أكبر من هاني تقَسموا إلى ثلاث مجموعات كل مجموعة فيها خمس قطط، وبعدها ذهبت أول مجموعة مع هاني و المجموعتين الأخريين مع صديق، متجهة كل منها إلى حلقة من الحلقات الثلاث التي وجدها هاني وتحقق منها، وكل مجموعة قد حفرت في مكان الحلقات وكسرتها جمعها. وبقيت الشتلات مع هاني، وعند الانتهاء من الحفر زرعها هاني في المنزل الأول وهو الشرقي الشمالي واتجهوا للبيت المتواجد شمال مسجد رضي الدين عبد الله ومن ثم اتجهوا نحو ذلك المنزل القريب من الحمام الأثري وزراعة الشتلات وكانت مهمة سهلة للجميع، ففي الليل لا أحد يهتم لما تفعله القطط، كانت زراعتهُ للشتلات بطريقة عشوائية، وتخاطر هاني مع الشجرة دائمة الخضرة وقامت بعملها وأنبتت الشتلات حتى أصبحت أشجارا عظيمة ودخلت بجذورها جميعاً الآبار كلها. وما بقي هو المحل الأخير، اتجه نحوه هاني ومعه خمس قطط من بينهم صديق، وطلب من البقية أن يلتقي بهم عند الشجرة أيضًا صباحاً باكراً عند شروق الشمس ووعدهم بما ما لذ وطاب. وأكمل مسيره نحو المحل وحاول جاهداً أن يجد مدخلا له ولكن الأمر كان شبه مستحيل حتى وجد منور الحمام في المحل وكان يحتوي نافذة صغيرة فيها مروحة صغيرة أيضًا، فرفع عصاه وإذ بالنافذة تُكسَر وقال لصديق: أُدخل من خلالها.

فعل ذلك وتبعته باقي القطط، وبعد بضع دقائق عاد وقال هاني: يوجد مخزن أسفل المحل، وهو غير مبلط بعد. قال هاني: هل تستطيع أن تحفر فيه؟ أجابه القط نستطيع. فطلب منه هاني: خذ معك هذه الأوراق. وبحركة من يده ملأ فم صديق بأوراق الشجر، وتابع هاني قوله، افعل ما فعلته أنت مسبقا للتأكد. كاد أن يختنق صديق بهذه الأوراق، فتجهم وجهه وبصق الأوراق وضحك هاني معتذراً منه، ومن ثم رمى

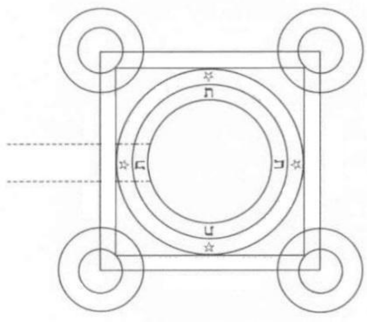
هاني له بحركة من عصاه من خلال النافذة الصغيرة التي يقف بها صديق عدد من الأوراق. وذهب صديق وبدأ بالحفر مع أربعة قطط وعندها تأكد من وجود حلقة في المكان بواسطة الأوراق، وعاد صديق لأخذ الشتلات وزرعها، ونمت الشتلات فور زراعتها بسرعة هائلة وملأت المحل بأغصانها وأوراقها، وخرجت القطط مُسرعة تقفز من النافذة الصغيرة متصادمة ببعضها البعض، خوفاً من أن تعلق داخل المحل الصغير.

وفي تلك الليلة كسرت الحلقات الأربعة، وشعر هاني بالفرح فشد بقبضته على العصا وتخاطر مع الشجرة دائمة الخضرة وقالت له: إن طاقة السحر في منزل الساحرة، لا تنتمي للبيوت لقد تبين لي أن هذه البيوت جميعاً متصلة بذات القناة، هذا يعني أن هنالك خطبٌ ما. هل هذا سحرٌ آخر؟ سألها هاني. قالت: لا أُريد الافتراض تعسفاً، وتابعت الشجرة: يجب أن نجد حلاً. كيف؟ سأل هاني. ولكن لم يكن هنالك إجابة من قبل الشجرة دائمة الخضرة.

فكر قليلاً وقال لنفسه: أقنية في المدينة، لقد وجدت ذلك في الكتب، لابد أن أجد الليلة مكاناً أو مخبئًا يدل على ذلك. يبدو أن الساحرة أكثر مكراً. صرف القطط الأربعة وذهب مع صديق للمنزل منهكاً متعباً، ولكن لم يستسلم بعد، بعد دخوله المنزل وضع صديق في الطابق العلوي، ودخل هاني غرفته وفتح الكتب جميعها ليبحث عن خرائط وأماكن للمياه وغيره.

بعدما رفع عصاه وحول الكتب لأشكالها الحية بأطرافها و أفواهها، وجد خريطة قديمة للمدينة وفيها رُسِم أقنية ولكنها غير واضحة المعالم، قام بطباعتها بطابعة يملكها وكانت قديمة الطراز تطبع باللون الأسود فقط، وهو لا يحتاج أكثر من ذلك.

حصل على مخطط من محاضرات سابقة، وأبحاث عن المدينة، وبحث في الانترنت ولا يوجد أيّ دليل على هذا يثبت كل هذه الادعاءات. طبع مخطط المدينة الحالي



مع الدلائل على البيوت الأربعة، ورسم خطوطاً تصل بين كل بيت وآخر، فظهر له شكل مربع نتيجة الرسم. وأمر الكتب أن تبحث عن كل ما هو متعلق بالمربعات والأشكال الهندسية التي يستخدمها السحر والأمور المتعلقة في كتابه التعويذات والختوم السحرية.

وظهرت أمامه ختوم بهذه الأشكال: حسنا يوجد شيء في المنتصف، قال هاني. ووضع نقطة في مركز المربع، توجد في منتصف شارع الثورة تقريباً، وهو عبارة عن تقاطع بين الحمام الأثري ومسجد رضي الدين عبد الله (الخامس) حيث يوجد شارع متجه للجنوب. بقي هاني حائراً من ذلك فهي مساحة خالية على خريطة المدينة الحالية، وقال: اللعنة. ولكنه أمعن النظر للخريطة القديمة وتطابقها بهذه الخريطة ورسم نفس المخطط القديم بأبعاده الصحيحة الحديثة، فوجد في ذلك المكان (الباسطية). كانت مفاجأة كبيرة له، لأنه لا يوجد في هذا المكان شيء يدل عليها، بحث في الكتب وقال أحدهم: إنّها بناء تحت الارض بارتفاع متر ونصف المتر وأن له بوابة لا تظهر للعيان.

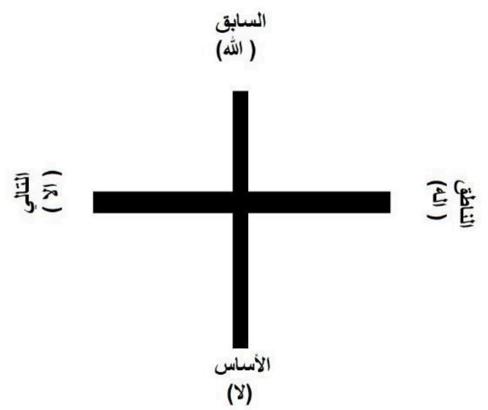
قرر أن يستكشف الأمر غدا، فالوقت قد تأخر ونظر بعمق للشجرة، وحاول التكلم معها. ناداها بـ (شجرة الزيتون) مراراً، ولكنها لم تستجِب، وتكلم هاني مع الكتب وسألها عن الباسطية والمدينة القديمة وقالت لهُ وأعادت لسردها عن تاريخ المدينة وعن الكنائس والجوامع وهو يتابع الخريطة بعينيه. قال لها: يوجد في الخريطة قلعة وجامع.

وقالت: لقد كان هناك ما يقارب **40** كنيسة سابقاً ولكن لم يكتشف إلا معظمها ويوجد أسفل المدينة مدينة قديمة أخرى، انتاب هاني شعور أنّه سمع بذلك سابقاَ، وأشارت له على الخريطة بنفس المربع. فقال لها: إن المدينة مقسمة لأربعة أجزاء أيضًا، وقال لها متابعاً: لماذا يوجد في كل ربع شيئا مميزا؟ وأين هي الباسطية؟

قالت له الكتب كأنها آلة تسجيل قديمة: البعض يعتقد أنّها كانت مسجد وأن لها محراب.
قاطعها: أخبريني المزيد عنها، لعله يوجد هناك شيء نستدل به.
قالت: البعض يقول أنّه يوجد سوق هنالك تحت السوق الحالي. و الباسطية هناك على شكل مستطيل أربعة أمتار في ثلاثة أمتار، وارتفاعه حوالي خمسة أمتار وله قبة وفيه محراب.
سألها: هل هو مسجد؟ ومن يصنع مسجد أسفل الأرض؟ وأن هذا يعني في كل ربع من المدينة يوجد بناء يميزه، قلعة ومسجد وكنيسة وجامع، ألا تظنون أنّه أمر مقصود؟
قال أحد الكتب له: لقد كانوا في فترات يختبئون بالباسطية، ويتكلمون عن جماعة كانت تأتي عبر السراديب العجيبة المخفية تحت الأرض سأل هاني: ولِمَ الخوف هكذا؟
قال الكتاب الذي يتحدث عن الدين كما هو واضح من عنوانه: كانوا يصلون، وخوفاً من بطش العثمانيين الذين كانوا ينكلون بهم ولا يريدونهم أن يؤدوا طقوسهم. قال هاني: يبدو أن هذا كان له دور في الدعوة السرية للإسماعيلية، وعلى ما يبدو أنّهم كانوا يستخدمون ذلك المكان فلقد أخبرتني شجرة دائمة الخضرة أنّها تعلمت من الكتب التي كانت تخبئ في الآبار. سأل هاني الكتاب الآخر متابعاً: هل يوجد في هذا المسجد بئر؟
قال له: نعم، يوجد بئر.
قال هاني: عليّ أن أسألكم عن الباسطية ايضاً. وقال: انني وجدت أمراً غريباً ولا أدرى أن كان مصادفة ولكن أن حدث ذلك وكانت مصادفة فإنه يُشَك بأمرها، أن الختم المستخدم للسحر مكون من مربع ومقسوم بأربعة مربعات صغيره

والباسطية في منتصفها، ويوجد مساجد على اضلعها أيضًا، ولكنني لم أجد علاقة للمساجد فيما بينها، فهي حديثة الطراز كما يبدو.

قال أحد الكتب الدينية: وجدت رمزا قديما للسجستاني، وهو على شكل مربع وأيضًا فيه أربعة خطوط متصالبة، حاول أن يوافق بين الشهادة التي هي شعار الإسلام، و بين شعار المسيحية وهو الصليب، السجستاني قال عنها: إن الشهادة مبنية على النفي والإثبات، فالابتداء بالنفي والانتهاء إلى إثبات. وكذلك الصليب خشبتان: خشبة ثابتة لذاتها وخشبة أخرى ليس لها ثبات إلا بثبات الأخرى. والشهادة أربع كلمات وكذلك الصليب أربع أطراف.



تمتم هاني: لكن الشهادة لا تكتمل إلا بشهادة أن محمد رسول الله، أي تصبح سبع كلمات، والصليب، توقف عندها وهو يفكر، وتابع: إنّه يقصد نهايات الصليب عددها ثلاثة، أيّ أطرافه وفي هذه الحالة يصبح العدد سبعة.

قال لنفسه: لنْ أنغمسَ في الروحانياتِ الآن. إن حديثها يطول، وتستطيع أن تقارن وتشبه هذا بمخططات المدينة، ولكن تشبيه كل الدوائر بالشمس وكل المياه بالينابيع، قد تحصل مصادفة ونستطيع خلق وبناء فلسفة خاصة بنا.

الفصل الحادي عشر

الباسطية

في اليوم التالي ذهب هاني مع صديق إلى الشجرة دائمة الخضرة، وشاهد عدد من القطط متوزعة في الزقاق، لم يكترث لها في البداية، وعند لقائه بالشجرة سألها أن تجدد له طاقة العصا، وأراد أن يخبرها بما وصل إليه من خلال بحثه في الكتب الليلة السابقة، وكانت راضية فتقول له الشجرة دائمة الخضرة: هذ غريب! فهذا المكان لم نطلع عليه قَطُّ، اليك العصا، من خلالها تستطيع الرؤية والتواصل المستمر معك، فلا تحجبها أثناء دخولك ذلك المكان، في هذه الحالة عليك الإنتباه، لأن طاقتها سوف تستَنفَذ بسرعة أكبر من ذي قبل، فكن حذراً ولا تطيل البقاء هناك. وضعت الشجرة التعويذة ونبت اثنا عشر برعم مزدوج جديد. وقبلَ أن يُنهي حديثهُ مع الشجرة، طلب منها أن تعتني بهذه القطط وذهب.

تابع هاني سيرهُ بثقة إلى الباسطية، وعند وصوله للموقع نظر حوله فكان هناك صيدليات ومحال، وأيضًا في الجهة الشرقية وجد مكتبة وهي مكتبة غياث القطريب، وقال لنفسه لابد أنّه يعلم عن هذا المكان.

اتجه نحو المكتبة ودخل وكانت مليئة بالكتب القديمة، والقرطاسيات وألعاب الأطفال ورغم صغر حجم المكتبة إلا أنّها تبدو واسعة من الداخل وتحتوي على أشياء كثيرة، كان يضع صورا لأشخاص تعلو صورهم شريطة سوداء، وهنالك بعض الصور الصغيرة المتناثرة على الرفوف، ألقى هاني السلام على صاحب المكتبة وكانت

تعلو على وجهه ابتسامة عريضة، وقال هاني: أُريد أن أسأل عن مكان لم أجده حتى الآن.

قال مباشرة صاحب المكتبة وبود كبير: تفضل، نحن في الخدمة. أعطى البائع انطباعا مريحا في بداية الحديث معه بتعاونِهِ وابتسامتِهِ، وقال له هاني: قرأت عن مكان يدعى الباسطية، بحثت عنه في الانترنت فاستدليت على وجودِهِ هنا -حيث يشير هاني للتقاطع في الخارج- أنا لا أرى شيئًا ولكنني علمت أنّها تحت الارض، وهذا زادني رغبة في الاستقصاء عنها هل لديك معلومات عن ذلك؟

كان صاحب المكتبة يريد أن يجعل الأمر أكثر إثارة بطريقته المباشرة وقال: وصلت إليها فعلاً. أنت فوقها. وفعلاً اتقدت شعلة الشغف في نفس هاني مرة أخرى، وشعر بغبطة في صدره. ابتسم صاحب المكتبة عندما علم أنّه وصل لمبتغاه في إثارة عقل الفتى، وقال: يبدو أنّك فعلاً تبحث عنها بقلب طيب، قالها وكأنه يتفحص زبوناً لأول مرة، نهض من كرسيه ووضع يده على كتف هاني بخفة، وأشار بيده الثانية على زاوية المكتبة وقال هذا هو مدخلها. كانت هذه اللمسة تشعر هاني بالتجمد، لطالما كانتْ في صغرِهِ مثلَ هكذا لمساتٌ مؤثرةٌ منْ الشخصِ الذي يحادثهُ ، أوْ أنْ يواسيهُ في شيءٍ ما ، فهذهِ الحركةُ شنجتْ ركبتيهِ ويديهِ ، وأصبحَ أقلُ سيطرةٍ على ماردةٍ كعقلِهِ وحواسهِ ، لم يكن مرتاحاً لهذه اللمسة العفوية ولكنه تماشى معها حتى زال أثرها. نظر هاني مرة أخرى فلم يكن المكان ظاهراً للعيان بشكل يثير الانتباه، أو أنّه يحمل لافتة تشير له. هذه هي! قالها هاني ولم يكن يعني في قوله شيء، وتابع: وأين بابها؟ أنا لا أراه -معتقداً أنّه مخفي - فقال له صاحب المكتبة بهدوء عندما علم جدية السؤال:

- إنّه مقفل وأشار إلى المدخل، لقد أصبح بها أتربة في الداخل وهي مهملة تماماً.

- كيف علمت بذلك وهي مقفلة؟ سأل هاني. فأجاب صاحب المكتبة:

- حصل ذلك قبل سنوات، ولقد أمر بذلك مُتعهد المجاري الصحية بتوصية من أحد المسئولين الذين يريدون طمس كل هذا الجمال، ولقد حاول هدمها سابقاً عن طريق البلدية ولكن لم يستطع ذلك، بسبب تماسك حجارتها وحجارة القاع ووجود عدة دهاليز حولها. قال هاني:

- لو يتم استثمارها لجَنَت البلدية وأصحاب المحلات المجاورين لها مالاً أكثر مما تجنيه من طمرها بالأتربة وإهمالها.

تأسفا معاً، وتحدثا ورَثا معاً حال التراث المفقود والآثار الموءودة، وعلى كل ما تحتويه من آثار، كأنهم فتحوا عزاءً على هذا الإرث المدفون، وأيضًا كل ذلك أعادوه لسبب وحيد وهو عدم الوعي. كانت تفضي معظم الأحاديث بشغف وغضب ويتم صب جام استيائهم على المسؤولين من الطرفين في السلطة الحاكمة ومن البلديات، وإلى أعلى المستويات، حتى قرار الفرد نفسه إلى قرار مجتمع بأكمله، وفي النهاية نجد أسف وندم ومن ثم نسيان ولا يتقدمون خطوة لتغيير الواقع، وهذا ما زاد الأمر سوءًا عبر السنين.

وجد هاني أنّه لا يستطيع الدخول إلى الباسطية نهاراً، ويُفكر بذلك في نفسه، ولذلك سيعاود خطته السابقة بأن يسهر عند صديقه هادي في سوق الخضار، حتى تغلق جميع المحلات، وينتظر اللحظة المناسبة ليدخل للمكان. في هذا الصباح لم يكن هاني هو الوحيد الذي لديه الشغف في الاستكشاف، لقد كان لدى الساحرة العجوز أيضًا، لقد كان ممزوجاً بالخوف. الخوف على ما خططت له لسنوات، لكيلا يتداعى أمامها وينهار أو حتى يُكشف أمرها. عندما شاهدت الساحرة طربوش ولاحظت بأنّه لم يغب كثيرًا عنها، شكت بأمره وبأنّه يخفي شيئاً، فحاولت استجوابه، فأخبرها بطريقة عفوية عن قطط جرته للخارج وشجرة تكلمت معه، ولكن شكوكها جعلتها تصدقه بسهولة، فأمسكتهُ من قبعتهِ ورمتهُ بعيداً، وأمرته هو وعدد من طرابيشها أن

يتقصوا عن الموضوع، فبعثتهم في ممراتها السرية التي تصل للبيوت عن طريق شبكة معقدة من السراديب الصغيرة للوصول لتلك البيوت، فلم تجد تغييرا في البيوت والآبار، فور عودتهم من استطلاعهم،عندها شككتْ في أمرِ كسرِ الحلقةِ الحاميةِ للآبارِ والمياهِ المحيطةِ بهمْ، عندها قررت لاتخاذ الحذر أن تنشر عددا كبير من الطرابيش في كل السراديب.

خلال كتابه هاني رسالة نصية على جواله يريد ارسالها لصديقه هادي، حول القدوم في هذه الليلة. سألهُ القط "صديق":

- ماذا قلت للقطط بعد حديثك مع الشجرة دائمة الخضرة؟ قال هاني:

- طلبتُ منهم أن يبقوا متأهبين الليلة، وإن كانوا نافعين سوف ينالون مكافأة كبيرة وهم الآن بعهدة الشجرة، كما طلبت منها أن تعتني بهم. قال القط حين يجوعون تراهم يستلطفونك، أراهن أنّك لن تجد نصف عددهم عندما تريد منهم المساعدة.

رد هاني: وحينها أعتمد عليك بذلك، فأنت سوف تساعدني، أليس كذلك؟

تهكم صديق للمرة المئة بعد الألف بهمهمات غير مفهومة من كثرة طلبات هاني، فضحك هاني ملء حنجرته وقال له:

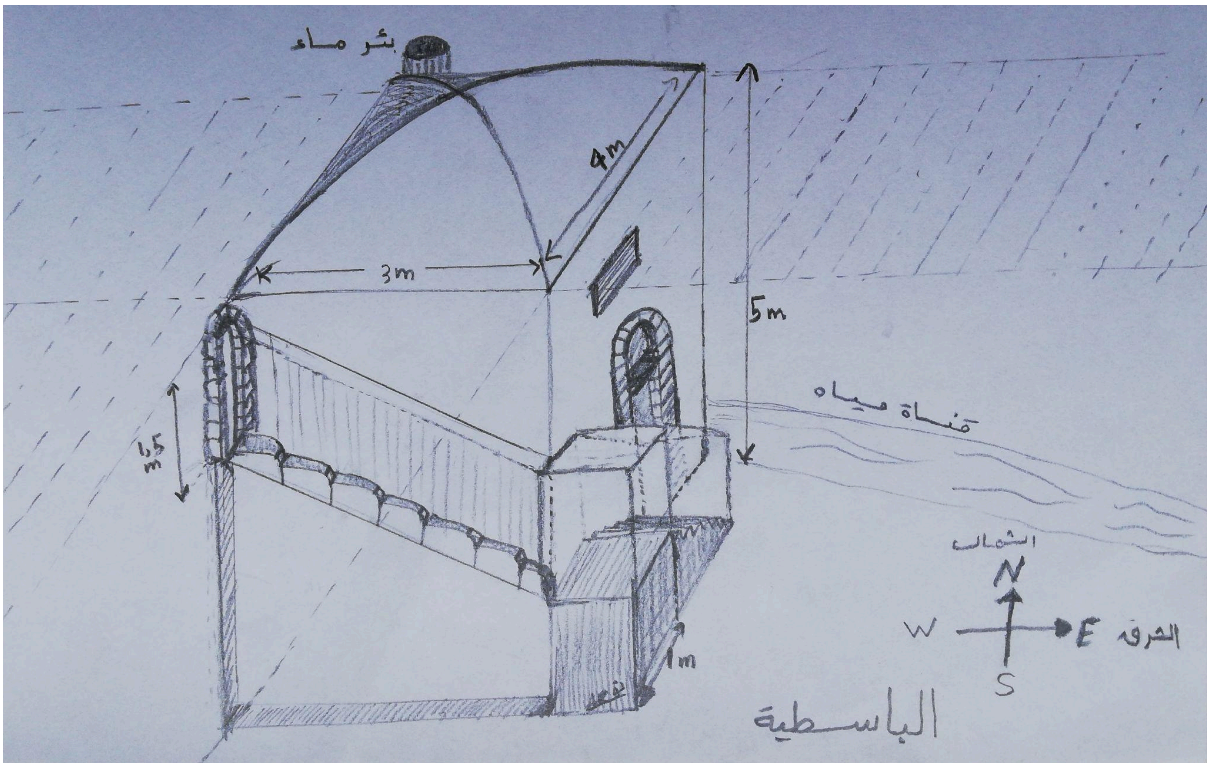
- كم أنت لطيف.

وداعب فروة رأس صديق ومن ثم حمله وأنزله في خرج الدراجة النارية. صعد هاني على دراجته، واتجه نحو منزله. أثناء قيادته الدراجة سمع صوت الجوال ينبه بوصول رسالة، لم يقف هاني في الطريق حتى وصل إلى المنزل، فتح الجوال وقرا الرساله وكانت من هادي تحمل ترحيبا بقدومه هذه الليلة.

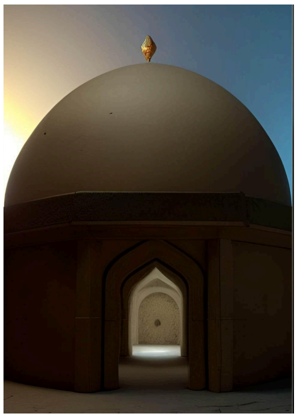
عندما حل الليل جهز هاني دراجته النارية، وأخذ معه صديق، واتجه نحو مكتب هادي، كان سوق الخضار يبعد قليلاً عن الباسطية، أمضيا الليل سوياً وكانت معظم أحاديثهم عن ذكريات الطفولة، التي كانت تجمعهما وأحاديث عن الجامعة والفتيات والرياضة،دعا هادي هاني إلى أنْ ينضمَ إلى النادي الرياضِي ويقضيا وقتهما معا.

وكانا يلاعبانِ ويداعبانِ القطِ صديق، وبدا أكثر ألفةً وحميمية معهم. حتى شارف منتصف الليل بدأت المحلات تغلق أبوابها وأصبحت الساعة الثانية عشر، لا يشعرون بالنعاس ولكن هادي لديه عمل في الصباح الباكر فاستأذن من هاني وأغلق المحل، وأيضًا هاني قال إنّه يريد أن يذهب ويتجول في شوارع المدينة.
قال هاني لنفسه: إن مكان الباسطية على الشارع الرئيسي، ولا يمكن أن يخلو المكان من المارة، وما يزال هناك أناس يسهرون أمام محلاتهم، ولسوء الحظ لا يوجد وقت محدد لكي تغلق آنذاك، وأن الالتزام بالقوانين ضعيف جداً ليس من قبل الباعة وحسب وإنّما من قبل الجميع، بقيَ هاني على هذه الحال يدور في الشوارع حتى الساعة الواحدة ليلاً، أصبحت الشوارع أقلّ ازدحاماً من ذي قبل، وخلال ذلك الوقت قال لنفسه بأنّه سوف يدخل إلى الباسطية الآن، وكان هاني يفكر في نفس الوقت بكيفية دخولها، قال لنفسه: علي أن أغير من حجمي، ولكنني لست في قصص الخيال التي لا تخلوا من مخاطر،حيثُ أنَ الناسَ متواجدونَ منْ حولي وسوفَ يلاحظونَ ذلكَ وأيضا على وجهِ الخصوصِ أنا لا أعلمُ ما هوَ مخبأٌ في الداخلِ، وأيضًا لا أستطيع أن أتخيل نفسي في حالة تغيير حجم جسدي ومن ثم عندما أُريد أن أعود لحجمي الطبيعي فذلك الأمر يعتمد على مخيلتي، فإن معايير القياس قد تخونني. توقف عن التفكير بالأمر ولم يكن الأمر اجترار ذهني ولا تخيلات واهية، لقد كان يركز بالمهمة وحسب، وعندها وقف أمام إحدى واجهات المحلات ونظر لنفسه وتأمل انعكاسه على الزجاج، إن هذه لمخاطرة كبيرة إن أراد تغيير حجمه وتملكهُ الخوف، كانَ يريدُ أنْ يبقيَ كلُ شيءٍ في هذا المكانِ على حالهِ دونَ أيِ تغييرٍ، ولكن وجد أن لديه خيارا آخر وهو من أسهل الطرق وأبسطها، رفع العصا في يده وبحركة بسيطة فتح القفل وأصدر الباب صوتاً فأفزع صديق، وأمسك بالقفل وفتح الباب ودخل صديق معه، وفي الداخل رفع العصا مرة أخرى وأعاد قفل الباب وطلب من صديق أن يبقى

عند الباب ليراقب. رفع هاني عصاه وأبقاها أمامه لكي يتخاطر مع الشجرة ولكي تشاهد ما يحصل كما طلبت منه، وفي اليد الثانية حمل جواله واستعمله للإنارة، كان المدخل على شكل درجات مرصوف بالحجارة ذات اللون الأزرق القاتم، وأيضًا الجدران مرفوعة بنفس نوع الحجارة، نزل هاني من خلال المدخل وكان عليه الانحناء قليلاً حتى يستطيع السير، وهو لا يستطيع أن يفرد ذراعيه في ذلك المدخل الضيق

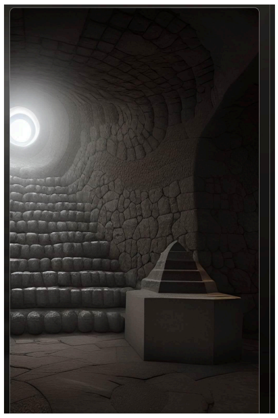


فلقد كان عرضه يقارب متراً واحداً. كان الدرج مهمل وكان فيه أوراق وأوساخ، مشى حوالي أربع خطوات قصيرة حذرة، وبعدها خطوتان لليسار ومن ثم نزل عدة درجات للأسفل ودخل إلى قاعة كبيرة وهي المسجد الموصوف من قبل الكتب، وكانت كبيرة نسبياً . لقد كان سقفها مرتفعا ويصل أكثر من أربعة امتار ولها قُبة ويبدو ارتفاعها أكبر من طولها وعرضها، وكان هاني قد فقد الشعور بالاتجاهات عند دخوله لهذه القاعة، ووجد في إحدى الجدران المحراب الذي تحدث عنه مع الكتب وعن وجود الكثير من التيجان والأعمدة المختلفة المتناثرة هنا وهناك، والجدران التي



تثير الريبة من النقوش القليلة التي تحتويها، عندما أصبح في داخل ذلك البناء، تساءل عن وجود قبة طالما أنّها تحت الارض ومخفية للعيان، وكأنها تخفي سراً ما، قال لنفسه وعادت سلسلة الأسئلة تصنع في عقله، هل ردمت الباسطية عمداً؟ أم أن لهذه القبة دوراً لكونها مقوسة[36] بهذا الشكل؟ ، هذا المكان أقرب لمكان ضريح مسيحي، وشاهد هاني أيضًا محراباً آخر كما يبدو ورغم عدم تأكده من ماهيته تماماً، وفي حال افتراض أن المحراب الأول أيضًا هو فعلاً محراب، وهذا غير متبع في الدين الإسلامي وجود عدة مَحارِيب في المساجد، ولكن هذه المدينة "سلمية" لها وضعها الخاص، لوجود جامع مميز، وهو مقام الإمام إسماعيل المسمى بالجامع ذو السبع مَحارِيب، الذي كان كاتدرائية مسيحية حيث تكثر الصُلْبان علي حجارته البازلتية، وهذا أمر مشترك بين المكانين فالحجارة في هذا المكان أيضًا بازلتية، و أيضًا جميع الأقنية التي كانت في العصر الروماني[37]، ولقد كان قبلها هذه الكاتدرائية هي نفسها معبد زيوس، كما تدل الآثار اليونانية، ولقد استخدمت حجارة المدينة مراراً وتكراراً ولا يستطيع الشخص أن يجزم بأمر البناء[38]، ولكن (**San Giovanni**) كمثال ومعظم القبور للقديسين هي أسفل الكنائس قديماً، وكذلك ما تم اكتشافه في مدينة روما القديمة، حيث أنّهم وجدوا معبدا وقبرا تحت الأرض، وهذه الطريقة متبعة سابقاً وهذا المكان لا يحوي مئذنة، ولهذا يشك بأنّه مسجد ولكن هذا الشك ليس في مكانه بالنسبة لمساجد الإسماعيليين حالياً، فهي لا تحتوي مئذنة وليس سابقاً، وأيضًا القباب والأقواس تُميز الحضارة والعمارة الرومانية، وليست حصرية على المساجد الإسلامية، وكذلك كان الرومانيون يستخدمون القبب للحمامات كما هو الحال في الحمام الأثري في هذه المدينة

36 في علم الهندسة القناطر تحمل أثقال أكبر من الجسور العادية للنوافذ
37 بشكل عام بالنسبة للعصور.
38 رأي الكاتب وليس منسوب لعصر محدد.

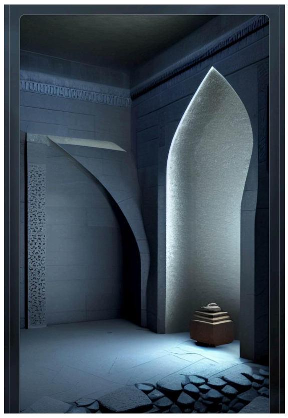


وكان ذلك حوالي 395م، أيّ في العصر الأيوبي[39]، وأيضًا يوجد بجانب المكان بئر وهو أيضًا ميزة مشتركة بين جميع الإنشاءات الرومانية، وليس حصراً لكي يكون للوضوء في المسجد، وقد يكون تم استخدامه لنظافة المكان حقاً أو لأصحاب المكان أو للزائرين، أيّ كما حصل في المسجد ذو السبع محاريب كان كاتدرائية وأصبح مسجداً، وأن هذا قد يكون ضريحا من العصر الروماني وتحول لمسجد مخفي في العصور الاسلامية واُستُخدم بشكل سري في زمن الدعوة السرية الإسماعيلية، والآن هو مهمل أسفل طريق أسفلتي ويمر بجانبه مجرور صحي.

حمل هاني عصاه وسمع أصواتا لأشخاص عند الباب، لقد كانوا يقولون: لقد دخل. أنا رأيته. وعندها سمع صوت حركة القفل وخربشات القط ومموائه، وقال أحدهم: إنّه قِطٌّ فقط. وقال الشخص الآخر: ولكنني متأكد أنني رأيت شخصا ما. ضحك الآخر وقال له: لابد أنّك تخيل فالباب مُقفَل. فتحققا منْ القفلِ وتَأَكَدا أنهُ مغلقٌ، وبعدها قفز صديق للداخل، ورحل الرجلان متوهمان أنّه قطٌ فقط.

- قال هاني لصديق: لماذا أتيت؟
- أجابه صديق وهو يحرك الرمال برجليه: لو لم أذهب من هناك لما ابتعدوا. تابع هاني النظر حوله وقال: طالما أنه يوجد بئر فلا بد أنّه يوجد خزان أيضاً. بدأت العصا تنقص طاقتها وعدد البراعم يتناقص بدوره، وقالت الشجرة دائمة الخضرة بالتخاطر مع هاني: سوف أزيح الرمال عن الأرضية. وبحركة من العصا بتحكم من الشجرة هذه المرة، وعندها أزيحت الرمال، وبانت أرضية القاعة ولاحظ هاني وجود أحجار مميزة بالأرض تأخذ شكلا مستطيلا طويلا، قال هاني: هل يوجد شيء أسفل هذه المنطقة؟ وعندها بشكل تلقائي أخرجت

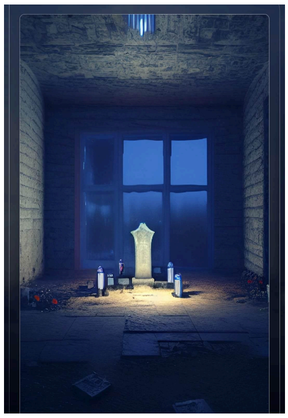
[39] رأي الكاتب.



العصا أوراقا ونثرتها على الأرض الحجرية، ولقد أصاب عددا منها الذبول واحترقت، قال هاني: هنا!

طلبت الشجرة دائمة الخضرة منه بأن يزيح الحجارة التي احترقت فوقها الأوراق، وهذه المرة هاني هو فقط الذي يستطيع تحديد وجود الحجارة بدقة أكثر من الشجرة نفسها، فأمسك عصاه بقوة وفي مخيلته تركيزه ينصب على تحريك هذه الحجارة من مكانها، ارتعشت يده وأصبحت العصا أكثر ثقلاً، فتشبث بها بكلتا يديه، وبدأت الحجارة بالاهتزاز في مكانها وكانت هي نفسها الحجارة المميزة التي كانت تشكل الشكل المستطيل الطويل، بدأت بالاهتزاز بقوة أكبر وارتفعت من مكانها جميعها سوياً، لم يكن بين هذه الحجارة مادة بناء تلصقها ببعضها البعض، فبدت كسرب من الأسماك في الماء ولكنها حجارة تعوم في بحرٍ من الهواء، أبعد هاني الحجارة وضربها في عرض الحائط، وأحدث ضجةً كبيرةً، وسقطت على الأتربة، فارتفع الغبار، كانت حركة غير موفقة من هاني.

- نفذ ما آمرك به الآن فليس لدينا وقت،قالتْ الشجرةُ وتابعتْ: اكسرْ جزءا منْ العصا فيهِ برعمُ أوْ اثنينِ وأغرسهُ في المكانِ الذي رفعتْ الحجارةُ منهُ.
- قال هاني: لعل هنالك سحر أو ختم موجود أيضًا أسفل هذه الحجارة، دعيني أتأكد قبل أن أخسر جزء من العصا. ورمى هاني عدد من تلك الأوراق التي تناثرت حوله، ولكن لم يحصل شيء، وتأكد حينها من خلو الختم أسفل الحجارة. وفعل هاني ما طلبت منه الشجرة، وكان الغبار يخنقه من أثر رمي الحجارة فوق الرمال، وبالفعل بدأت تنمو بشكل سريع وأصبحت شجرة صغيرة بوقت قصير جدا، لقد وصلت جذور هذه الشجرة عميقاً وتحسست وجود قبر فيه جثة. في هذا الوقت لفت انتباه هاني تواجد خطوط ونقوش غريبة لم



يستطع أن يفهمها أو يميزها، قالت الشجرة دائمة الخضرة وهي تخاطر هاني وكان يغطي أنفه بكنزته ولا يستطيع الرؤية بوضوح:

- يوجد أسفل المكان خزان ماء ويوجد مجرى مائي بجانب هذا البناء.

- انتبه! قالها صديق بصوت عالٍ.

والتفت هاني وراءه وتفاجئ بوجود أحد ما يراقبه، وارتعب قليلاً لوجوده المفاجئ في المكان، هرب ذلك الشخص قصير القامة ولحق به صديق، ودخل في أحد السراديب وفي الدهاليز أيضًا، ونادى هاني صديق وطلب منه ألا تلحق به.

رغم ذلك صديق لم يقدر على اللحاق به، وعادَ صديق خائفاً وعينيه متسعتين وأذنيه منسدلتان يجري مسرعاً أكثر من لحظة ذهابه وقال: يوجد أعداد كبيرة منهم. قال هاني: من هم؟ أجابت الشجرة: إنّهم الطرابيش، أنا سأتدبر أمر القبر. اذهب الآن وافتح باب المدخل، ثم اغرس العصا في المكان نفسه. ذهب هاني مسرعاً وفتح القفل وبقي صديق بجانب الباب، وعاد وزرع جزءًا كبيراً من العصا بسرعة كبيرة فعل كل ذلك بخوف شديد كأنّه يهرب من شبح غير مرئي، بلمن عدو مجهول المكان قد يكون في هذه اللحظة يحيط به من كل جانب. شعر هاني بالاختناق وليس فقط بسبب الغبار اللعين، كأنه يشعر بأيادي جميع الطرابيش ومعهم الساحرة تحيط في عنقه ويريدون قتله،وهوَ يسرعُ كانَ هاني يشعرُ بالزمنِ يتثاقلُ وهوَ يفكرُ في رجليهِ تسعيانِ جاهدتينِ بالجري نحوَ البوابةِ . بدأت البراعم تنمو والأشجار ترتفع فوق التربة وبدأت المياه تتدفق في الدهاليز، التي كانت تجرف معها الطرابيش.

سبق القط "صديق" هاني للأعلى، وقال: لا يوجد أحد، أسرع. لم يزرع هاني كل العصا كما طلبت منه الشجرة وأبقى في يده جزءًا منها يحوي برعمين، كان حذراً جداً لكيلا يفقد التواصل مع الشجرة دائمة الخضرة، أعادَ إغلاق الباب ووضع أوراقاً

صنعها بالعصا فوق المدخل. ركب هاني دراجته النارية ومعه صديق واتجها نحو الشجرة دائمة الخضرة. في تلك الأثناء كانت الأشجار في الباسطية تكسر ختم القبر، وعندها كانت الطرابيش جميعاً تتحول إلى جذور شجرية يابسة، قال لصديق: ماذا الآن؟

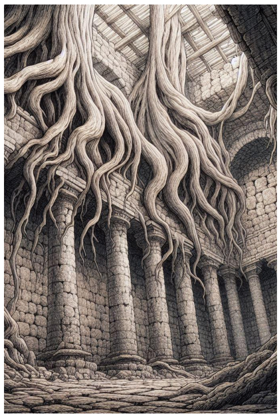
أجابه صديق: لقد بدأ هجوم الساحرة الآن، وهي في كامل قوتها. قال هاني: نحن لم نكسر الحلقة الموجودة في بيت يحيى، وعلينا الذهاب إلى الشجرة دائمة الخضرة وأن نزرع الشتلات في المكان وأعتقد أن القطط بقيت عند الشجرة كما طلبت منها، وأنت عليك أن تقودهم، وصل هاني وصديق إلى بيت يحيى، وكان كلام صديق صحيحاً بأن عدد القطط سوف ينقص في نهاية اليوم، كان هنالك ثلاث قطط فقط، ومباشرة طلب هاني من الشجرة: جهزي لي العصا وأعطني الشتلات. فقالت له: إن الطرابيش ما زالوا هنا في القاعة والسراديب مليئة بهم أيضًا، والأشجارُ متجذرةٌ في الأرضِ والطرابيشِ تواجهها ، فالمياهُ تقفُ بجانبِ الطرابيشِ ويستمدونَ قوتهمْ منها . لم يفهم هاني نوع هذه المواجهة، وفي الوقت هذا كان الصدام حم بين الطرابيش المحاربين وجذور الأشجار وكانت الجذور تحاول غرس نفسها في أجساد الطرابيش، وما إن تمس الجذور طربوشاً من الطرابيش حتى تحوله إلى جذع من خشب وتشل حركته وتسحب منهم طاقتهم وتتصلب، وما هو إلا وقت قصير حتى تعيد الطرابيش قوتها وإمدادهم بالطاقة وذلك بسبب وجود الماء حولها، فهذه المياه تجري لصالحهم كما خططت الساحرة. وجميع المحاربين مصنوعين من الأخشاب والمياه فهي تستطيع أن تستغل ما يحيط بها من طاقة السحر، وفي المقابل كانت جذور الأشجار أبطأ من الطرابيش في حركتها، فبدأت الطرابيش في اكتساحها وتقطيعها، وبدأت تخسر النزال أمامهم، وكانت الأشجار تحاول منع الطرابيش لكيلا يتجهون إلى الساحرة لإخبارها بما يحصل على أقلّ تقدير، ولا يقفون في صف الطرابيش المتواجدة في

منزل الساحرة. قالت الشجرة لهاني: إننا نخسر المعركة. بعد إنجاز صديق مهمته عاد إلى الشجرة مع القطط.

بقيت القطط مع القط صديق تحفر في الأرض في الحلقة المحيطة بالمنزل، وثم قرر هاني دخول منزل يحيى وناداه يطلب مساعدته.

في هذه اللحظة تفاجئ يحيى لدخول هاني، وخطر له ان والدته في القبو وانه يستطيع الخروج فأجاب هاني مسرعاً بالخروج اليه. قال هاني: قبل البدء في العمل، عليك أن تأكل شيء من الفواكه لكي يختفي تأثير السحر عنك. أخرج هاني من العصا تفاحة، تناولها يحيى على عجل، وشعر بالألم شديد في رأسه. في تلك الأثناء، بينما هاني و يحيى و القطط تكاد تنتهي من الحفر و استبدال التربة المالحة بالتراب الجديدة لغرس الشتلات، لاحظ طربوش كل ما جرى حوله، وأراد اخبار الساحرة بالأمر، و عندها بدأ المنزل يهتز و الجدران تتخلخل، وبدى طربوش كالسكران و جسده بدأ بالتقلص وطربوشه يهتز من فوق رأسه و يكاد يسقط من مكانه ارتطم طربوش بالجدران يميناً و يساراً أثناء سعيه للوصول الى باب القبو، ولكنه لم يستطع فعل ذلك، بسبب تصدع جدران المنزل و اهتزازه سقطت بعض الاتربة من بين شقوق سقف القبو والغبار يملأ جو هواء القبو فعلمت الساحرة بوقوع خطب ما في الأعلى. غرس هاني ومن معه الشتلات ودخلوا جميعاً الى المنزل، وامتد من الشجرة دائمة الخضرة بنمو فائق غصن طويل وغرس نفسه في التراب المحيط بالشتلات كان بلونه البني كأنه ثعبان أناكوندا ضخم وتشعب في الأرض والتحم بتفرعاته مع جذور الشتلات فضخ فيها الماء السحري الذي تجره الشجرة دائمة الخضرة لتلك الشتلات من خلال أليافها و بإعطائها الغذاء والطاقة، نمت بسرعة استطالة الغصن سابقاً فتحولت الشتلات خلال ثوانٍ معدودات إلى أشجار عظيمة بسرعة هائلة.

نادت الساحرة بأعلى صوتها الحاد على طربوش برغم قدرة الجدران على العزل ولأنها مصمتة الا أنها سمعت الى باب القبو الذي دخل منه هاني ويحيى والقطط، وفي تلك



اللحظة تشققت جدران وسقف القبو ليس بسبب صوت الساحرة بل بسبب امتداد جذور الأشجار، وألقت الساحرة تعويذاتها لإيقاف امتداد الجذور وهي تشتم، فدخل هاني ويحيى مع القط صديق الذي يحمل طربوش بين أسنانه، وطربوش يزداد ذبولاً في كل ثانية تمر عليه، عندها نظرت الساحرة اليهم جميعاً و الى يحيى بشكل خاص، وأصبح وجهها أكثر ضخامة و الحقد يغذي جسدها و ظلها الأسود العائم على جدران القبو يزحف نحو الأعلى، والجدران تسيل كالإسفلت السائل الحامي يذيب و يحرق الجذور الممتدة منه وهي تقاوم للوصول الى المياه أسفل القبو، وصرخت الساحرة بصوتها الذي تحول من حاد الى صوت غليظ وذو فرقعة مرعبة يرعد في الغرفة مخاطبة يحيى: هل تخونني؟!

رفع هاني عصاه باتجاه الساحرة محاولاً إلقاء بعض الحبال والحيل السحرية لتكبيلها، لكن الساحرة تتصدى لكل محاولاته التي بائت بالفشل وبدأت بالهجوم، وهاني يتصدى وهو يراقب الجذور تمتد شيئاً فشيئاً نحو القبر وما حاول فعله هاني هو كسب الوقت لكي تستغله الشجرة دائمة الخضرة بالوصول من خلال جذورها وجذور الأشجار الأخرى الى القبر ومن ثم للمياه. اتجه يحيى نحو صديق ونزع طربوش من بين أنيابه بحركة خاطفة وهدد الساحرة بان يقضي على طربوش أمامها إن لم تتوقف في الحال عن هجوم هاني، فإن مات طربوش سوف يموت هو بدوره. وتحولت الساحرة وعادت لشكلها الطبيعي وظلالها انكمشت من الجدران وزال السواد تدريجياً. وهي تريد أن يغفر لها وهنا الشجرة تشعب جذورها في القبو، وبسرعة تصل للبيت الزجاجي الذي يحوي الطرابيش المنكمشين على نفسهم في مركز البيت الزجاجي خائفين من بطش طرفي القتال، فتعتصر الجذور البيت و يكسر فيتناثر الزجاج المكسور في الهواء فيحتمي هاني بتعويذة من عصاه و القطط تقفز مبتعدة و أما يحيى

ينكمشَ على نفسهِ لكنهُ لمْ يحتميَ منْ الزجاجِ فيصابُ بِهِ بكاملِ جسدهِ ويسقطُ طربوشُ منْ يديهِ بسقوطهِ أرضا فتتجهْ إليهِ الساحرةُ مسرعةً وتتمنى لوْ أنها تستطيعُ إعادةَ طربوشٍ لجسدِ يحيى المنهكَ فتجثو بجانبهِ وهوَ مستلقي على الأرضِ والشظايا منغرسةٍ في جميعِ أجزاء جسدهِ، فتلقي الساحرة بتعويذة لتخرج تلك النثرات الزجاجية من جسد يحيى و تسقط على الأرض والدموع تغرغر عيني الساحرة وبتعويذة ثانية تحاول إشفاء جروحه، و بيدها الأخرى تحاول أن تصد هجوم الشجرة دائمة الخضرة، التي أمسكت بالطرابيش و غرست بها جذورها و محولتاً إياها لقطع خشبية يابسة بما فيهم الطربوش المائي والناري وحاولت كسرهم جميعاً في آن واحد، و هاني يتجه نحو القبر ليكسره فطلب من القطط مساعدته لكي يحفروا حول القبر، و عندها يُكسر الغطاء. وامتدت الجذور خلال القبر نحو المياه الجوفية المخزنة أسفل البيت، وقالت الشجرة دائمة الخضرة ذلك لهاني من خلال التخاطر.

كسر ذلك الصمت صوت يحيى المتألم بجراحه الخارجية والداخلية وقال: لم أعد أريد هذه القوى جميعها زائفة انا استسلم. وتقول الساحرة: لا تقل ذلك. وهي تنظر للقبر وتخاطب جثة زوجها: أيها الخائن. وتقول ليحيى: سوف تبقى ولدي مهما حدث. انا ابنك كما كنت دائماً، قالها يحيى بألم في قلبه المجروح من كل شيء. وتريد أن تخبره الساحرة بأنها والدته ولكن بسبب كبتها الطويل للحقيقة التي طالما كانت محبوسه في قلبها قالت له: أنت ابن أبيك. وفي الخارج هناك والدتك التي انجبتك. ويشعر يحيى بكسر في قلبه ألمه كسيراً ويكز على أسنانه من الألم و بصوته المتقطع عند الألف يقول: لماذا الآن؟!

سُمِـعَ صوتُ فرقعةٍ من طربوش المرمى على الأرض، ولم يعلم أحد ما هو السبب. وركله هاني برجله فقذ بعيداً، الى الجانب الأخر من القبر. وقال يحيى بصوته المتقطع: هل هذه هي الثمرة التي كنتي تريدين الحصول عليها، لقد دمرت حيواتنا جميعاً. والطرابيش المكبلين بجذور الشجرة دائمة الخضرة تتكسر جميعها بلحظة واحدة متناثرة

كالغبار في هواء القبو. ويقف طربوش على قدميه الصغيرتين ويسمع صوت تكسر في داخله وعينيه دامعتين فتنظر الساحرة له: ويقول لها: ماما. ويسقط من على رأسه طربوشه و تنظر اليه الساحرة باستغراب و يتجه مسرعاً نحو القبر المليء بالجذور المتشعبة بالمياه و التي تغطي عظام جثة والد يحي و يقفز، و بتلك اللحظة تجري الساحرة نحو طربوش و تحاول إمساكه قبل أن يقع وعيناها بلحظة تنظران الى يحي و جسدها يتجه نحو طربوش، وتقفز مع طربوش و تمسكه بكلتا يديها وتحتضنه، وهي مرتاحة و مطمئنة و يلمع شيئ في صدر طربوش كالزمرد الأحمر المتوهج، وبدأ ينبض في أحشائه كقلب صغير و يتوهج كضوء البلازما الذي ولد منه أول مرة و يسقطان معاً هو والساحرة في القبر، وعندها يحدث انفجار ضوئي قوي جداً منه و تظهر شجرة نتيجة تحول طربوش، وهو ينمو و جذعه تدخل في احشاء الساحرة، وهي تصرخ من المها و تقول ليحيى: اهرب.

فيتجه هاني الى يحي محاولاً مساعدته فيقول يحي: لا. أنا اريد مساعدة والدتي.

فيقول هاني: هيا بنى، انتهى الأمر.

وبدأت الشجرة المنبثقة من القبر تتشعب في جميع أنحاء القبو والمياه أسفل المنزل تصدر صوت كالغليان. والضوء بدأ يتسع أكثر و أكثر وحاول الجميع الهروب إلا ان الشجرة المنبثقة أمسكت ببعض القطط بأغصانها و هرب هاني ويحيي وصديق وبعض ما تبقى من القطط واتجهوا جميعاً إلى خارج المنزل الذي بدأ بالانهيار من خلال باب القبو وخرجوا منه وثقف المنزل يكاد يسقط على رؤوسهم، و يخرجون من المنزل جميعاً بمساعدة الأشجار المحيطة بالمنزل، و عندها تتسع دائرة الضوء وشاهدوا ظهوره اسفل الأغصان المتشابكة فوق المنزل الذي إنهار كلياً وهبطت عليه الأشجار الجديدة كالمطارق فحطمته و سوته بالأرض والضوء بازدياد يتسع، وبلحظة آنية تقلص و سحب كل شيء يمسه الى مركزه بما في ذلك المنزل و التراب و

الأغصان وهبت رياح عاصفة باتجاه نقطة مركز الضوء و سمع صوت انفجار وصعد عالياً بشكل عمودي كإعصار صغير طويل غبار قاتم اللون و دخل فم يحيي ليعيد ما سلب منه سابقاً فيعود يحيي لهيئته الطبيعية، أما مكان المنزل أصبح أرض تغطيها الأغصان و أوراق الأشجار و الأشجار تحيط بالمكان من كل جانب.

استلقى يحيي على الأرضِ وهوَ ينظرُ إلى يدهِ اليسرى وهيَ تصعدُ أمامهُ إلى السماءِ كأنما أعيدتْ لنصفهِ الأيسرِ الحياةِ، والمياه تتدفق في السراديب وأقنية المدينة، ونمت الأشجار بسرعة وازدهرت في جميع أنحاء المدينة حيث فتحت الخزانات التي توجد في أحد آبار القلعة، مما زاد في تدفق المياه حتى وصلت إلى الجبال والأراضي الزراعية المحيطة في المدينة، وكانت قناة العاشق في انتظار أول نقاط المياه لكي تعود إلى سابق عهدها. ظهرت عيون مياه كانت مخفية لقرون في الأراضي المحيطة بالقلعة في الجبل الشهير "عين الزرقاء" وعاد اسمها الحقيقي للمدينة سيل مائة، بعدما كانت وراء أصابع الطمع للطرابيش والسحرة. انتصر هاني أيضًا على لعنته التي كانت مرافقته دائماً، فأصبح يعيش اللحظة بكل ما أمكنه، وكوّن علاقات جديدة وبنى صداقات جديدة، وعاد لموهبته في السحر وتكلمه مع الحيوانات الألفية التي جعلت له أيضًا أصدقاء من عالم آخر. وبعد مرور سنوات أصبحت صداقة هاني ويحيي أقوى وعمل يحيي بالتجارة في المحل في سوق الخضار، وأصبح هاني شريكه خلال دراسته، وبعد إكمال الدراسات هاني ازدهرت البلدة وزراعتها وفتحت مصانع، ونشطت السياحة بعد اكتشاف تلك القنوات وأصبحت كأنها مدينة أخرى تحت المدينة الحالية، شارك يحيي هاني ما لديه من أعمال و أصبح من رجال الأعمال وأسس أول مصنع لتكرير المياه و له خمس وعشرين مركز توزيع في كل أنحاء البلاد، والآن بعدما أصبح هاني في الجانب الآخر في الصفقة الأخلاقية التي بدأت بالخمس وعشرين ليرة

حيث أصبح المتلقي للمساعدة من يحيى، ولكن لم تؤلمهُ قسوة أخذ المساعدة، لقد كان مهيئا لذلك.

النهاية